NARDEEN ABUNABAA

رواية
NOVEL

نردين أبو نبعة

قد شغفها حبّا

3

مكتبة
الرمحي أحمد
الكتاب ٤٨

قد شغفها حبّا

مكتبة الرمحي أحمد

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

@ktabpdf .. قناتنا على تيليجرام

NOVEL

نردين أبو نبعة

قد شغفها حبّا

مكتبة الرمحي أحمد

الكتاب ٤٨

أحداث هذه الرواية حقيقية . . إنها مستلهمة من
يوميات زوجتين لمقاوميْن فلسطينيين

إلى براء وإسلام
ربما تأخرت هذه الرواية لتكون لكما . .
حيث الأرض تحنُّ لأصابع وليدة
تبتكر النصر كما يبتكر البحر الموج

وداد
يوسف الصدّيق

قد شغفني حباً . . غير أنيّ لم أراود يوسف ، لم أقدَّ قميصه من دبر ، لم أعط صويحباتي سكيناً وأقل ليوسفي اخرج عليهن!

أتساءل الآن وسط هذا الضجيج الذي ملأه عليَّ يوسف . . وسط هذا العزف والتّحنان :

هل كان من الجنون أن أعشق رجلاً أكبر ذنوبه التسبيح بحب الوطن؟

بعد مرور كل هذه السنوات وأنا ويوسف نطوف حول كعبة العشق . . ونسعى بين الصفا والمودة ، مازلت أذكر قول أمي الذي يعبر عن وجهة نظرها فيمن أختار زوجاً :

ـ (غبَّة من السَبع ولا النذل كله)

يومها توقفت عند هذه الكلمات كثيراً!! تراها من تقصد بالسَّبع؟ ولماذا غبَّة وليس كله؟ أم أن السَّبع لا يمكن أن يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك!!

أي سَبع في غزة ذلك الذي تريده أمي زوجاً لي؟

ضحكة تبعثرت على شفتيَّ بلا ميعاد بينما أمي تكمل حديثها عن يوسف :

ـ لقد نجا من عدة محاولات اغتيال ، فقد ساقيه في إحداها

وإحدى عينيه ، ويجلس على كرسيٍّ متحرِّك ويتنقل في القطاع تحت الأرض لإدارة عمليات المقاومة ضد الصّهاينة ، وهو أحد المطلوبين الذين تعجز إسرائيل عن الإمساك به أو اغتياله!

مكتبة الرمحي أحمد

قلتُ في سرِّي :

إذاً سأدخل الحلقة المفرغة ذاتها . . حلقة الاحتراق والأنفاس المترقِّبة وسريان البرد في أوصالي في عزِّ الظَّهيرة واصطكاك الأسنان بهلع . لم أصحَ بعد من استشهاد زوجي الأول . . لا أريد أن أرى دموع صغاري وهي تأكل ما تبقى عندي من صمود . . من أحلام متيَّمة ببحر غزة .

هل سأفتح دفتراً جديداً موشَّحاً بقصّة جديدة؟ وهل ستحتمل أحرفي الحزينة مزيداً من الخذلان والوجع؟ هل ستستطيع أحرفي الانتصاب مرة أخرى؟

دارت بي الدنيا ، وارتعش جسدي ، وصار وجهي قاتماً كما الأفكار التي تدور في عقلي .

هذا قرار صعب . . أن أكون لرجلين مقَاوِمَيْن!! الرجل الأول كان جناحي الذي حلَّق بي نحو النور والرغبة اللامتناهية في عناق الأرض .

كم شقَّ على امرأة صغيرة لم تتجاوز العشرين أن تستوعب فقدان حبها الأول الذي حلَّق عالياً نحو حلمه الأبهى (الشهادة) وتركها وحيدة مع ثلاثة أطفال أحدهم في أحشائها

وحيدة وعاجزة لفظتني الحياة . . مكشوفة الظهر بلا أدنى سلاح ، لقد كان بلال أوَّل من كبَّر في أذني تكبيرة الحب ، لم يحببني حباً ساكناً هادئاً ، كان حبه مليئاً بالضجيج كنتُ قصيدته الأجمل التي يكتبها كل يوم . . بحروف لا تبهت وبأصابع لا تعرف الملل .

قبل استشهاده بأيام أخذني إلى السوق واشترى لي ملابس جديدة ولولديّ (بكر وبنان) وأخبرني يومها أنني حامل مع أن التحليل الذي أجريته قبل دقائق نفى ذلك! وبالفعل كان حدسه في محله . . فقد كانت ابنتي بيان تسكن أحشائي!

عشتُ بعدها ثلاث سنوات أسكن سرداباً موحشاً لا بصيص نور ينفذ إليه . . لا أتنفس سوى كلماته ولا أرى إلا صُوَرَهُ التي ألصقها على الجدران .

حين وقفتُ أمام جثمانه كنتُ كطفلة صغيرة تتشبث بثوب من تحبه . . تلتصق بصدره . . تتوسل إليه أن يصحو ويسمعها . . أسمعهم يقولون لي :

قولي : «اللهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيراً منها» . . أبتلع الجملة تلفّ حَنجرتي ولا أستطيع النطق لا بها ولا بغيرها . . لكنني سمعت صوت قلبي يردّدها

لكنني وبعدما سمعت باسم يوسف توقفت نهنهات دمعي وخرخشات فؤادي المنهك . . عرفت أني سأخرج من السرداب المظلم الذي سكنته منذ فترة باختياري .

كان قلبي العشرينيُّ هرماً . . لكن بعد سماع طلبه شعرت بأنني أبيع حزني على رصيف مفخخ بالدّم! لا يهم وإن كان بيع الحزن مرهوناً بالدّم . . سأبيعه ولو ليوم واحد ومع حواريٍّ . . أعرف أنه سيصلب عاجلاً أم آجلاً

كان يوسفي يريدها أرملة لها أيتام . . وكان طلبي الوحيد أن يبقى أبنائي معي لا أنكر أنه تملّكني صراع كبير قبل الموافقة عليه . . خفت أن يكون زواجي فيه خيانة لبلال ولأولادي . . وكم ساورني

القلق بأن تتكرر المأساة فيصبح أبنائي الجدد بلا أب ، وخفت أكثر أن أستشهد أنا كذلك فيصبحون جميعهم بلا أم . . لكن ثمة منام رأيته أعطاني فيه بلال الجواب الشافي!!

رأيت في المنام (بلال) وقد أهدى إلي درّة مصونة ، قال لي هذه لك . .أريدك أن تحافظي عليها !

وداد
ورد أحمر

فجأة قبلتُ به زوجاً وكأني لم أتردّد وأرواغ وأتهرب وأغرق وأتمادى في خيالاتي وأفكاري السوداء .

لكنني عندما اتخذت قراري لم ألتفت للوراء أبداً . . وكنت أخاف ذلك ، أخاف أن أندم!!

وجدته أمامي بسرعة مذهلة . . نظرتُ إليه . . شقّ قلبي ودخل .

لم يكن وسيماً لكنّه في عيني أصبح يوسف الصديق . .

لم يكن غنياً . . غير أنيّ أجزم بأن النجوم تتلألأ بين كفيه . .

لم يهد إليّ ورداً أحمر أحتفظ به في دفتري . . غير أنه علمني كيف أزرع حديقتي به

لم تعنِني وسامته ولا ملامحه . . فالملامح تكذب في أغلب الأحيان . .!! ما كان يعنيني أكبر من ذلك . .

كان يعنيني أن أقرأ مستقبل وطني في وجهه . . أنظر في ملامحه فأرى صورتها واضحة (فلسطين) من بحرها لنهرها . . أرى أطياف من رحلوا قبل الأوان واغتالتهم يد الاحتلال .

عندما تكلم للمرة الأولى بحضور والدي . . سمعتُ في رنة صوته . . أصوات آلاف الأسرى والمعتقلين .

كانت تعنيني مقاومته ورجولته . . وما بين الرجولة والذكورة رائحة

تعرفها امرأة طاعنة في حب الوطن! وما بين السبع والنذل خطوة بلا أقدام كما يوسف الذي فقد ساقيه في إحدى غارات الاحتلال!

لم أكن أتصور مهما شطح بي الخيال ووصل أن أكون ملكة متوّجة على عرش الرجل الأول في غزة . . الرجل الذي يدير عمليات القتال وهو جالس في حفرته . . الشبح الأكثر مراوغة وحيطة وحذراً ومهارة وخطراً!

قبلتُ به وأنا أعرف مصيري القادم . . قال لي :

-لا مكان لك آتيك فيه كما الزوجات . .!! ولا عنوان لبيتنا ، ولا زمان للقائي بك ، لا تواصل بلا ميعاد ، لا زيارات طائشة ولا محادثات تلفونية للاطمئنان ، لا كلمات تتطاير هنا وهناك . . حتى مع أكثر الناس قرباً

أستمع إليه ولا أدري ما الذّي أصابني في حضرته . أحدّق في عينيه . . وأبقى صامتة . . مذهولة . . فيقول لي ما رأيك؟

-قلتُ له دون أن أنبس ببنت شفة :

ـ سأغطي كل تحركاتك وأحميك حتى من أنفاسي .

فهمني وابتسم!

قبلك كنتُ على قناعة تامّة بأنّ الحياة قد مسحت آثار الفرح العالقة بثنايا روحي . . ويوم ذكرت أميّ اسمك . . لم أكن أعي أن تفاصيل حياتي ستصبح الأكثر إثارة ودهشة .

ما زلتُ أذكر ذلك اليوم . . وتلك الحكاية التي تفاخر بها أمي على رؤوس الخلائق وأزعم أنها تدخرها ليوم تشخص فيه الأبصار .

كانت أمي تجلس جلسة سمر نسائيّة حينما ذكروا أن (الشبح) كما كانت «إسرائيل» تسميّه يريد الزّواج !!

عندها قالت أمي وبعفوية ودون تدبير أو تخطيط سوى حبٍّ المقاومة والمقاومين . .

ـ والله لو يطلب بنت من بناتي لأعطيه!

ويبدو أن هناك من يسترق السمع . . فنقل كلام أمي مباشرة إلى يوسف وإذ به يأتي خاطباً في اليوم التالي . . وكانت هذه المرة الأولى التي يلتقي فيها أبي بيوسف أما الأخيرة فأعتقد أنه سيكون لها قصة أخرى .

وداد
سدرة الحب

للبدايات صمت وارتباك وترقّب وأسئلة وإجابات . . لكن بدايتي معه لم تكن كذلك .

منذ الساعات الأولى معه صار لحياتي طعم آخر . . ولقهوتي نكهة البهجة ، ولصباحي رائحة المطر الذي يشتاق أن يقبل وجه الأرض . .! وفي عينيَّ شوق كما الكمان للألحان .

في يوم عرسي لم أكحل عينيَّ ، فهو كحلها المنتظر ، وهو دمعها ، ولا أدري كيف يجتمع النقيضان!!

معه أمتطي صهوة العشق ممتشقة قلبه لأصل إلى السدرة حيث لا شيء بعدها إلا الاحتراق . . أقف عند السدرة أتأمّل ما لا يخطر على البال . . معه قطفت أجمل ما في الرجال . . رسوت على شاطئه وأحرقت سفني ورميتُ نفسي في بحره الذي يصنع الأمواج . عندما رأيته قلت :

جاء الحب وزهق الحزن إن الحزن كان زهوقاً!

سمعتُ عنه الكثير . . رسمتُ صورته بفرشاتي ولَوَّنته بألواني لكنه كان الأبهى مما تخيلت والأجمل مما رسمت . . هو أسطورة أعرف عنه كل شيء ورجل لا أعرف عنه أي شيء!!

أخذ يتكلم ويتكلم . . أحببت طريقته في الكلام . . كل حرف

يخرج من شفتيه له جاذبية آسرة تجعلني أشهق شهقة المزيد! كلما تقدم إلي خطوة أكتشف رجلاً شفافاً . . يتقن إدارة حبه كما يتقن إدارة معاركه وفي كلٍّ قائد! اكتشفت قلباً يعمر بالإيمان لا يغنّي على مسرحه سوى الوطن .

كل لقاء سيجمعني بيوسف على قصره سيكون بحجم الكون الذي يطرب للصلوات .

عندما اتخذت قراري بالقبول به زوجاً . . استغربت من نفسي لوهلة وأطلت التفكير . . هل ما فعلته كان صواباً؟ وكيف أقبل وأنا الفتاة العشرينية برجل أربعيني قعيد . . حصدت «إسرائيل» قدميه في محاولة الاغتيال الأخيرة؟

الآن وأنا معه تعاودني هذه الأفكار فأضحك في سرّي . . فما حصدته «إسرائيل» هو سرّ اشتعاله ، وكأن قدره إتقان شرارة الحب وإبقاء جذوتها مشتعلة . . حبي وحب الوطن .

معه لم أشعر بفارق العمر . . لم ألتفت لفقدانه ساقيه كنت كعصفورة لم تسعني السماء طيراناً

دوماً كنت أردد :

أخطر كلمة على الإطلاق هي كلمة نعم ، خاصة عندما نقولها ونحن نتلعثم . . قلت نعم وكانت أجمل نعم أنطقها في حياتي .

يوسف يتقن الإجابة عن أسئلة تدور في ذهني . . يبهرني بإجابته التي تشعل شغفي وتطيل مدة لقائي به . . منذ اليوم الأول لزواجنا أعطاني درساً في اليقين . . قال لي :

-يا وداد . . قد أعيش معك أياماً معدودة ، وقد يكتب الله لي البقاء في الحياة سنين طويلة ، ولكن أقصى ما أتمناه أن يبقى إصبعي

ضاغطاً على الزناد حتى ألقى ربي شهيداً

مشاعر متناقضة وغريبة انتابتني في هذه اللحظة كنت أعرف طبيعة الحياة التي سأحياها مع يوسف إلا أنني مسنيَ الرعب حينما تخيلته أشلاء ممزقة . . شعرتُ بنفسي منكسرة ومبعثرة . . كتمتُ صرختي التي تلَوَّن وجهي بها دون أن أشعره . . لكنه شعر بي وأكمل :

ـ يا وداد عندي أمل بأن يسجد سحرة قومي . لذلك لابد أن ألقي عصاي ، وعندي يقين بأن لي قدرة على شق بحر الوهن حتى يعبر شعبنا بسلام ، هذا طريقي الذي تعرفين وأنتِ سكَّر أيامي أرسلك الله لي تُحلِّين فمي الطافح بالمرار .

ها أنا أُهزم من أول كلمة . . ومع محاولاتي الأولى للكتابة أرى نفسي وكأني أدخل حلبة اللغة لأول مرة . . لم أتوقع أن يكون مرهفاً وشاعراً إلى هذا الحد! لا أستطيع أن أجاريه كلماته تفتك بي يبهرني توُرطه في عشقين متوازيين فيهما من الغموض والاشتعال ما يجعله لا يشبه أي رجل آخر!

ويبدو أن القلب حين يمتلىء بمن يحب يكف عن الآه حتى وإن كانت النار تلسعه . . هذا ما شعرتُ به وأنا أستمع ليوسفي .

هل جرَّب أحدكم أن تلسعه النار ، ومع ذلك يتلذذ بالحرق؟

أنا كذلك!

قلت والدموع تتكاثر في عيوني :

-لا أتصور نفسي بدونك . . لا أستطيع تخيل مشهد استشهادك قبلي

قلتَ لي وأنت تكفكف دمعتي الخجلى :

-الألم سينتهي والنصر سيبقى فكوني معي

ها أنا أضع يدي في يدك . . نجمع حيواتنا الصغيرة كضمة ورد . اخترتك واخترت طريقك . طريقك هو قدري الأجمل . . سآتيك سعياً كما طير إبراهيم ، لكن لا تزعل مني إن كنتُ في بعض الأحيان هشَّة وضعيفة . . فغيابك سيفعل بي ذلك وأكثر . . هكذا هو العشق يلملمنا في لحظة ويربكنا في لحظات . . لا أقول هذا الكلام لأكدِّر صفوك أو ألومك على غيابك القادم أو أشكوك لك . . أقوله لتسمعني . . لأطيل وقت لقائي بك . . فليست غايتي سوى الأنس بك .

***

صباحي الأول معه ليس كغيره من الصباحات . . أصحو لأتعوَّذ من يوم بلا رؤياه ، أتلو المعوذات وآية الكرسي ، أنفثها على جسده ، على روحه ، على أفكاره

في الخارج الشمس تطل على استحياء بثوبها البرتقالي من خلف ستائر النافذة ، ، أطفال يملؤون الشاطئ ينفخون بأنفاسهم المتعبة المرتعشة بالونات حمراء وصفراء وخضراء ، يخطوّن عليها أسماء من فقدوا خلال الحرب الأخيرة ، آباء ، أمهات ، إخوة وأخوات ، أصدقاء ، ثم يدفعونها لتطير إلى السماء . علَّها تصل لذوي القربى!!

أتمزق وأنا أرى تلك الأسماء . . تتحول إلى مجرد حروف على بالون ، طارت إلى السماء وحلِّقت قبل أن تُكتب على البالون ، في أيام الحرب تحولت غزة إلى جحيم على الأرض .

أحدِّق في ملامح يوسف ، أعرف ما يدور في رأسه . بالأمس كان وجهه صافياً رائقاً واضحاً كنور الشمس ، تقلص وجهه ، أصابع يديه تشد بقهر على بعضها ، لكن الأهم تلك النظرة التي كان ينظر بها

لهؤلاء الأطفال . . للبحر . . نظرة أرى فيها أن السّفاح على مرمى حجر من عينه!

قال وفي صوته بحّة تكاد تخنقه :

ـ أتدرين يا وداد أن الذي قتلنا ليس العدو . . الذي قتلنا ظلم ذوي القربى . أعرف عدّوي جيداً ، وأعرف كيف أغرز ظفري في لحمه ، ولكن لا أستطيع أن أغرز ظفري في لحم أخي الذي يحاصرني ويركلني بقدمه لأكون لقمة سائغة في فم عدّوي .

هكذا هي صباحاتنا يا وداد . . صباحات الوجع والطفولة المفطومة على الدم ، لا صوت ، لا ضحكات يصاحب نفخ البالونات ، الهواء ثقيل والبحر يبكي عطشاً ، وأنا خلف النافذة لا أستطيع أن أستر عريهم ، لا أملك كلمات تناسب حجم فزعهم ، لا أملك ورقة توت تغطي عورتهم .

انتهت الحرب وجفَّ الدم واختفت أصوات القذائف والطائرات الزنانة ، وانقشع الدخان لينكشف الجرح الغائر . انكشاف الجرح وعدم قدرتنا على تغطية ألمه أشد ألماً من لحظة حدوثه

ها نحن نراقبهم من النافذة . . نحصي الشهداء معهم ، نزن ذنوبنا على أيدي أطفالنا

قلتُ له :

ـ الإنسان العادي هو الذي يشعر بالألم . . أما المقاوم مثلك فهو الذي يحمل بشارة النصر بين جناحيه . . الألم هو هو ولكن كيف نستقبله هذا هو المهم

صدَّقْني الألم يأتي على قدر الوسع . .

. . شعرتُ بعيونه تتحول من الشباك إليَّ وحدي . . شدَّ على

يدي . . شعرت بأنفاسه الحارة تُشعل أصابعي . . قال :

- عـجـبتُ لمن لم يذق طعم العـشق كـيف ينبض قلبـه؟ ليس مصادفة أن ساقتك الأقدار لي . . صارت الحياة أكثر رقة وأقل قسوة . . صـار للألم وجـهٌ آخـر وانكشـفت غـشـاوة عن عـيني . . نعم أنا وأنت نحـمل بشـارة النصـر والخـلاص . . في لحظة واحـدة مـعك وبكلمـة شعرتُ بأن الحياة أعطتني معنى جديداً . . وكأنني ولدت بك ومعك ، كم كنتُ أحتاج كلمـاتك . . . قال ذلك ، وقـبل أن يخرج ناولني بيده دفتراً صغيراً ، دفتراً مهترئاً . أوراقه صفراء بالية ، مكتوباً على غلافه الخـارجي اسم هيـام . نظرت إليـه وكـأنني أسـتـفـسـر . . قـال لي هذه مذكرات هيام كتبتها عندما كانت في غزة بصحبة زوجها المطارد ، أنا واثق أنهـا سـتكون مـلاذاً لك تأوين إليـه حين يسـتـعـصي عليك فـهم وشرح ما لا يُشرح!!

أغلق البـاب وخرج . . تركني مع دفتر بال وسـاعات قضاها معي على عجل . . في زمانٍ لا يشبه زماننا ومكانٍ لا يشبه أماكننا . . ألتقي به لسـاعـات ثم يختـفي لأسـابيع ومع ذلك لـم يكن بمقـدوري إلا أن أنتظر .

تركني مع دفتر بال كدفاتر الطلاب ، مجلَّد بتجليد بني اللون . . مكتـوب على غـلافـه الخـارجي اسم (هيـام) ومـزين ببـعض رسـومـات الطائرات الورقية التي تليق بروح توّاقة للحرية .

أتشـبَّثُ بالدفـتـر المهـتـرئ . . وأنا أُمنّي نفسي بسـاعـات تخلو من الضـجر والانتظار لأنتـهي بنفـسي ، أقع في فخ الحكايا التي سـأكـتـبـهـا أنا

أفـتح الدفـتـر . . فـألمح أوزاقاً صـفـراء لَوَّنتـهـا سنوات طويلة مـرت

عليها ، بعض الصفحات كانت واضحة ورائقة كصباح ربيعي مشرق ، وبعضها مبعثر وملون كأوراق خريف بُنِّية اللون وصفراء هزتها الريح هنا وهناك .

بعض الكلمات ذابت واتحدت مع بعضها البعض . . مما أتاح لي أن أغوص وأتخيل ما وراء الكلمات ، وبعضها تسامق وأصرَّ على التربُّع بكل زهو

لم أكن أتخيل يوماً أن هذا الدفتر المهترئ سيكون المحراث لأرض كنت أظنها بوراً لن تزهر كلمة واحدة! بعدما بدأتُ بقراءة الدفتر (دفتر هيام) بدأت بالكتابة وصرتُ كلما كتبت عن حياتي شيئاً ما ألحقه بفصل مما كتبت هيام ولا أدري أين سأصل!!

سأكتب اسمي الحقيقي واسم هيام فقط . . أما أسماء أزواجنا فلا . . سأغيِّر أسماءهم لدواع كثيرة ، أولها الداعي الأمني ، وثانيها لأنني أعرف أن كل من سيقرأ سطوري سيكتشف الأسماء الحقيقية

لم أكن أعرف أن هذا الدفتر سيقضي على ضجري فحسب . . بل سيغير كل حياتي ومن خلاله سأكتب قصة حياتي .

وداد
بوابة الكتابة

هيام هي التي فتحت لي باب الكتابة . . شدتني من يدي المتعثرة المرتبكة ، علمتني أن أكون واضحة وصادقة ، وأن أكتب كل ما يخطر في بالي ، وضعت القلم بين أصابعي . . القلم الذي يتكىء على حكاياها أولاً . . ثم رويداً رويداً بدأتُ أسترسل وتنفك عقدتي في الكتابة .

بعدما أنهيت قراءة صفحتين من دفتر هيام وجدت نفسي بين أحضان القلم أكتب . . .

لن يعرف أحد حتى أقرب المقربين أني زوجة المطلوب الأول لـ«إسرائيل» ، الذي يرأس وبشكل مباشر مجموعة القيادات المعدودة التي تتواصل معه فقط!

كم كان يحزُّ في قلبي جواب أمي . . عندما تسألها إحدى النساء . . ممن تزوجت وداد؟ فتقول لهم :

إنه رجل كبير في السن ، يسكن في المنطقة الوسطى وله أولاد كبار . حتى عمي الذي كان يسكن في الطابق السفلي لم يكن يعرف من هو زوجي! وفي مجالس النساء أؤثر الصمت لدرجة أن أختي إيمان كانت تقول لي :

مكتبة الرمحي أحمد

والله يختي لو تحلفي لهم إنك مرة المطلوب الأول لـ«إسرائيل» مايصدقوك!!

ومع كل هذه الاحتياطات الأمنية والحيطة والحذر المفروض عليه ومع بعدي عن كل وسائل الاتصالات الحديثة (فيس بوك ، واتس أب ، بريد إلكتروني) بدأت أتعرف على بيانو جديد أعزف عليه لحن حياتي الجديدة! إنه قلمي . . . القلم الذي خفته كثيراً ولم أجرؤ على الاقتراب منه طيلة حياتي السابقة . . ها أنا أشعر بألفة عجيبة معه وكأنه يدعوني إلى تدوين حياتي القادمة . . بكل تفاصيلها وأحداثها الغريبة

مررت بفترات مظلمة في حياتي كل شيء كان ينهار كجبل جليد ، حتى في ذلك الوقت لم أفكر بالكتابة . . أمّا الآن . . ها أنا أمسك قلمي وأسير بمحاذاة هيام . . كلما قرأت صفحة أو صفحتين . . تشتعل حروفي ويصغي القلم . . أخط أحرفي التي لن تستطيع أن ترى النور يوماً إلا بعد موتي أو انكشاف سر زواجي من يوسفي .

إيمان أختي لن تصدق أن هذه الأحرف خاصتي . . أعتقد أنها لو قرأت ما أكتب لتذكرت تلك الحادثة في تلك الليلة الماطرة عندما رجوتها وهي البارعة في مادة التعبير أن تكتب لي موضوعاً . . لكنها كعادتها وبشقاوتها وحبها للمناكفة رفضت وأخذت تستغل ضعف موهبتي في الكتابة وتقول لي :

ـ سأنفذ طلبك شريطة أن تنفذي لي بعض مطالبي!

أتوسل إليها وأبكي بحرقة . . أجري لأمي ومع ذلك لا تقبل ولا تشفع توسلات أمي لديها!

أرادت إيمان أن أخوض تجربتي وحدي ، أعبر عما يجول في خاطري بقلمي أنا . . حتى إذا ما أنهكني البكاء وبدأ يعتريني النعاس وأشفقت عليّ لأنها تعرف أني لا أتحمل توبيخاً ولا تأنيباً ، حينها

جلست بجانبي وبدأتُ أُخرج مشاعري مشافهة وإيمان تكتب ما أقول . . تضيف وتحذف . . أشعر بالكلمات راقصة بين أصابعها . . لها روح وأنا أنظر إليها بدهشة وكأنها تخلق خلقاً جديداً .

لن تصدق إيمان ولو أقسمتُ لها أنني أخيراً أمسكت بقلمي . أمسكته لأجله لأدوِّن تلك الأسطورة وأحفظها من الاندثار لأجعل من الشبح الذي يتمنى شعبه أن يراه حقيقة من لحم ودم . لا بد أن أكتب لأخبرهم أني عرفت رائحة عطره الممتزجة بتراب الوطن ورائحة البارود . لأقول لهم إني مسحتُ غبار نعليه المعفرين بتراب المقاومة ؛ لأجعله فوق رؤوس الطغاة والسفاحين . . لأخبرهم عن لون عينيه وشكل ابتسامته وقصة شعره . . فأنا وحدي من أغرق في مسامات جلده وأتلمس تفاصيل وجهه بيدي . . أنا لا غير من تعرف الكأس التي يحب أن يشرب فيها ، ولون القميص الذي يعشق أن يرتديه ، وكم لوَّن الشيب من شعره . . أنا وحدي من أميز نبرة صوته

بعد كل هذا التمنُّع من قِبَلي احتضنتُ قلمي واحتضن هو قلقي وولهي . . في أحيان كثيرة أنصت لصوت حيرتي وارتباكي . . عندما ستقرأ إيمان ما كتبت ستبكي . . .لأن تلميذتها الكسولة الخائفة تفوقت واستطاعت أن تدون تاريخ مقاوم عملاق!

وداد
(جواهر وعالمية)

تعرَّفتُ عليها منذ الصفحة الأولى ، ولم أعِ أن لحروفها صدىً سيتردد في رأسي كثيراً ، في البداية توقعت أن أركض وراء كل كلمة تكتبها ، أكتفي بذلك كأي قارئة تتزود بالصبر حتى تتحمل وتستمر ، مع استرسالي في القراءة وتوغلي في الصفحات شعرتُ بالضجر!! ليس مما تكتب بل من تراكم حكاياتي على صدري . وبدأ وخز الحكايا يؤلمني . ومع مرور الوقت أدركتُ خياري وفهمت أن النار التي تشتعل في داخلي قد تعرضني للاحتراق . . لذلك كان لابد أن أجرؤ على الاقتراب من تلك النار حتى أطفئها بالكتابة!!

الورق هو المكان الوحيد الذي تتقاطع حيواتنا فيه مع بعضنا البعض (أنا وهيام) . . القلم هو الحضن الذي نلجأ إليه في نهاية كل نهار . .

هيام التي تعيش في مدينة نابلس الآن ، ولم تكن لديها النية في نشر مذكراتها ولم يكن يخطر في بالها أن تصبح كاتبة ، لقد كتبت من باب التخفيف عن نفسها ، تفصل بيني وبين هيام سنين طويلة تتجاوز الخمس عشرة سنة

سألتقي ومنذ اليوم وفي كل ليلة معها على الورق ، ولا أدري ما هو وقت نهاية ذلك . . أو وقت لقائي بها . . منذ الصفحة الأولى لدفترها

الأصفر المهترىء . . شعرت بروحها وروح (يوسفها) تنبضان بقوة . . أصبحت هناك رابطة قوية بيني وبينها ، تحررت من مخاوف كثيرة . . أصبحت أكثر خِفَّة وحباً للحياة التي أحيا

لسنوات قادمة ستصبح هيام النجمة البراقة التي تهديني في لحظات الظلمة . . ستلحقني أينما كنت . . بعينيها البراقتين وظلها الخفيف الشفيف . . ستصفق لي حيناً . . ستضع يدها على فمي حيناً آخر . . ستجحظ عيناها دهشة عندما أتصرف تصرفاً لا داعي له ستحضنني عندما أشعر بالتعب وأرغب بالبكاء الطويل . .

عندما تقرأ لأحد ما . . فإن شيئاً مما فيه ينتقل إليك دون أن تشعر!! أحياناً وأنا أقرأ لها أتبعثر وأرتبك ، وأحياناً أخرى تلملم ذاتي وأشعر أني وهي روح واحد!!

عندما فتحت الصفحة الأولى شعرتُ بكلماتها تتسلل مباشرة إلى قلبي ، أذكر اليوم الأول لقراءتي بجلاء ، فقد اكتشفت أنها وصلت لسدرة العشق التي وصلت لها

كتبت هيام . . .

غداً سأكون معه

سأعرّج إليه ونلتقي عند سدرة الحب ومعي فيض من الشوق يسّاقط علينا فلاً وياسمينا

غداً

سأكون معه . . حيث يتقد النبض وتتدفق الحروف على السطور في صباح يغني فقط للعاشقين!!

سأصحو من نومي فأشتمّ رائحة عطره على جسدي وتنعتق دمعة

فرح لا يهمها إن كان عمر اللقاء قصيراً!

على موعد معه أنا دوماً

أكون وحدي ويكون معي

وحده يشعل مساءاتي

أنام ولظى المحبة يفيض على الوسائد وأصحو على وخز الحنين . . فللحنين وخز كما الشوك ، لكن مع اشتداد الوخز يبعث الله وردة ليخبرنا بأن الشوك زائل .

لكي نلتقي لابد أن أسافر إليك في فضاء غامض الألوان والأحداث .

سمعتُ صوت خالتي عالياً تجادل شاباً أراه لأول مرة وهو يقول إنه أتى من قبل يحيى ويريد أن يصطحبنا إليه . . استغربت خالتي وأنا لأن الشباب الذين يأتون لاصطحابنا لا يصرحون عادة بأي معلومة!

لا يفصحون عن وجهتهم ولا من بعثهم . . التقطت الأصوات ونزلت بسرعة على الدرج ، شعرت نفسي حروفاً مبعثرة ولا بد أن ألتقي بيحيى لينظمني قصيدة ولا أعذب ، فقلت بتصميم لحماتي :

ـ هيا بنا نجهز أنفسنا بسرعة . .

لم أترك لها فرصة لكي تقول نعم أو لا . . صعدت بسرعة إلى أعلى ، تناولتُ حقيبة صغيرة وضعتُ فيها القليل من الملابس لي ولطفلي ، وفي غضون دقائق كنت أقف أمام باب المنزل ، فقد أسلمتُ نفسي لغيمة تحملني إليه

عندما رآني الشاب جهزت نفسي بهذه السرعة ذُهل! وخرج بسرعة وأتى بسيارة وضع على نوافذها ستائر غامقة اللون . خرجنا ولم

ينتبه لنا أحد ، فقد كانت عيادة ابن خالي قرب بيتنا ، وكان يسهل علينا الخروج والدخول لوجود الكثير من سيارات المرضى

قبل أن نصعد إلى السيارة أعطانا هويتين ، وقال لي احفظا أسماءكما

أما أنا فقد وهبني اسم (جواهر) وأما حماتي فقد فكان اسمها (عالمية) ، وعلى الفور حفظت اسمي وبدأت أتخيل الدور الذي سأقوم بتمثيله . . فأن تتقمص شخصية أخرى وتخرق قوانين المحتل أمر يدعو للشعور بالسعادة ولو مؤقتاً

أحببت الاسم فهذا الاسم أينع في الطريق ليحيى وبلل شوقي واختصر المسافة بين عيني وعينه

سارت السيارة وشذا يحيى يقترب مني ، وهل يملك غيره ذاك الشذا؟

أجفل من صوت خالتي أم يحيى تعكر صفوي من حين لآخر تقول لي بنظرة عتاب وخوف :

ـ انتبهي واقرئي لوين ماخدنا هالشب . . والله إني خايفة ولولا جنونك ما طلعت!!

-قلتلها وأنا أمسك ضحكة توشك أن تفلت مني :

ـ توكلي على الله يا حجة ، مهما حصل الله معنا .

حينها بدأت أزيح الستائر عن شباك السيارة ، أقرأ اللافتات ، وتبين لي أننا نسير إلى رام الله . . اجتزنا رام الله ثم وصلنا إلى الرام توقفنا ونزلنا

أخرج الشاب من جيبه الكثير من الهويات المزورة ، هويات ضفاوية وهوية غزاوية وهوية إسرائيلية . وقفنا خلف بعضنا البعض والجندي

الإسرائيلي يفتش الهويات ، قدَّم له الشاب الهوية الإسرائيلية فسمح له بالدخول . . فدخل ووقف بعيداً ينتظرنا

سألني الجندي عن اسمي قلت له

- جواهر .

وعندما سأل خالتي أم يحيى نظرت إليَّ نظرة من وقع في مصيدة أو غرق في بئر ، أحسست من نظرتها أنها نسيت اسمها!

حينها شعرت بقلبي يخفق بقوة وشعرت بأن قدميَّ ترجعان للوراء ، تجمَّد الدم في عروقي ، وجفَّ حلقي ، ولم أستطع حتى بلع ريقي ، ودبَّ الرُّعب في أرجاء جسدي .

لكنها تداركت أمرها بسرعة وصرخت في الجندي الإسرائيلي وكأنها تسخر منه :

-مابتعرف تقرا . . اقرا يافالح!!

أخذتُ نفساً عميقاً وشعرتُ بأنفاسي بدأت تنتظم .

-قال لها :

أنت حجة كبيرة وسأسمح لك بالدخول . . أما أنتِ وأشار إليَّ فلا . . فما زلت صغيرة . . ارجعي

قلتُ في نفسي :

نجحت في الامتحان ، وحفظت اسمي ، وقمت بتمثيل دوري بإتقان وكنت أشطر من خالتي وأرجع . . لا والله ما أرجع .

وبدأتُ أبكي وأقول له :

-هذه أمي ولا أرجع وحدي ، إما أن أدخل معها ، أو أعود معها

وبعد مرور ساعات وبعدما جفَّ الدمع في عيني سمح لي بالدخول ، حينها أخذت دموعي بالهطول مرة أخرى فقد عدتُ إلى فلك يحيى .

من بعيد رأيت خيال الشاب ، وكان قد أخبرني قبل النزول من السيارة :

-سأنتظركم عند سيارات القدس للساعة الثالثة ، إذا تأخرتم سأذهب .

حملتُ صغيري بسرعة ومشيت ، فقد كنت خائفة ألا أجده ، فقد كانت الساعة تقارب الرابعة ، ركبنا سيارات القدس ولا أدري إلى أين سأذهب .

مع الحب كل خوف يغدو أملاً . وكل غموض يصبح سحراً هكذا أخذت أتمتم في سري .

كان شعوري غريباً وأنا أركب سيارة لا أعرف إلى أين تتجه ، شعور يعيد الرنين إلى صوتي فأردد :

أذهب ولا أدري إلى أين؟ أردد العبارة وكأنني أعزف لحناً ولا أصحو إلا على همسات خالتي أم يحيى تهز كتفي وتقرب فمها هامسة بغضب :

-موش أنتي قارية . . اقري كل قارمة على الطريق .

أرفع الستارة بين الفينة والأخرى ولا أجد أي إشارة تدل إلى أين نحن ذاهبون ، حينها بدأ قلبي يرتجف إلى أن قرأت لافتة تدل أننا ذاهبون لغزة .

اقتربت من خالتي وطبعت قبلة على خدها وقلت لها :

ـ بتعرفي وين رايحين يا خالتي؟

-قالت : لا

-قلت لها

ـ قرّبنا من غزة

حينها انفرجت أسارير خالتي أم يحيى . . وارتاح قلبها وبدأت تتحدث باسترسال وقالت لي :

عمرك سمعتِ قصة بيت هالشعر؟

قلت لها :

ومن إيمتى بتحفظي شعر ياخالتي؟

-قالت :

-شايفتيني قليلة يابنت أختي؟ قلت لها لا والله بس عمري ماسمعتك بتحكي شعر!!

وشو هو بيت الشعر وشو قصته؟

(هذا الزمن الله يهده

الزلمة صار يحرد وبدو المرة تردو!!)

وبدأت تحكي لي حكاية . . أسمعها لأول مرة منها . . حكاية بنت المختار . . الحلوة إلّي القمر ميخد من وجهها شقفة!! تحكي والشمس بدأت تحاكي الغروب . .

قالت :

-كان يقعد في (دير قسيس) وبجنب البير على الجلجل يراقب حركاتها ومشيتها ، وكيف كانت تحمل جرة المي على راسها وتمشي وهي رافعة قامتها!!

كانت بنت المختار ، معدلة على قولتهم وصاحبة حنكة وأخت رجال .

هناك على الجلجل وبعد ما تأملها وراقب كل حركاتها أخذ القرار بالزواج منها لما قال :

ع بير الجَلْجَلْ لافرش واصلي

لأنو مريم منو بْتمَلّي

وفعلا تزوجا وأنجبا . . وفي يوم صار بينهم مشكلة وخرج من البيت . . وغاب أيام (زعل وحِردْ) ولأنها بتعرفه أكثر من الجميع وبتعرف أنه عنيد . . بعثت له بعض الأقارب ليحكوا معه . . ولكنه رفض يرجع إلا بشرط!!

رجعوا إليها والحرج في وجوههم وقالوا لها :

-مارح يرجع عبد الحميد إلا بشرط إنك تيجي معنا!!

ضحكت وقالت :

-رح آجي معكم . . لأنه جوزي ولو طلب مني أن آجيه زحف لإيجيت . . ومشيوا في القرية تتوسطهم بثوبها الأبيض المطرز وبلشت تردد مع تسارع الخطوات :

هذا الزمن الله يهده . .

الزلمة صار يحرد وبدو المرة تردوا!!

***

وصلنا إلى حاجز إيرز وكانت الشمس توشك على الغروب ، وهو وقت رجوع عمال غزة الذين يعملون في «إسرائيل» . استغل الشاب الذي معنا فرصة تدفق العمال كالسيل وحمل طفلي وحقيبتي وقال لي ولخالتي :

ـ امشوا بسرعة .

مشينا مسافة طويلة نوعاً ما إلى أن وجدنا كارّة ، ركبنا عليها . ولأول مرة أدخل البريج . وكانت هذه الرحلة الأولى لي إلى غزة في أواخر شهر ٩٤/١١

دخلنا منزلاً بسيطاً للغاية ، أخذت ألتفت يميناً ويساراً ، فهم

الشاب أني أبحث بين الوجوه عن يحيى فقال لي :

ـ إنه سيأتي في الغد

أول عشاء أكلته في غزة كان كباب غزاوي حار جداً كحرارة الحنين الذي ينحت صوت يحيى وابتسامته أمام عيني

نمنا ليلتنا الأولى في البريج ، استلقيت على سريري وأنا أُمنّي عيني بدفء عينه ، آمر جفني أن يهدأ ويركن ، غفوت أو لم أغفُ . . لا أدري ، كل ما أذكره أن حرائقي انطفأت عندما رأيت يحيى وتفتح قلبي وصار ورداً أحمر

الألم كبير والدمع قليل لا يكفي
(وداد)
حرب ٢٠٠٨

لم تمض أيام قليلة على زواجي من يوسفي حتى نشبت الحرب . .

أسوأ إحساس قد يمر بالإنسان . . هو إحساس الخوف!! أن تخاف يعني أن يصعد قلبك بسرعة مجنونة إلى أعلى ثم يرتطم ، وفي اللحظة نفسها إلى أسفل

الخوف هو بعثرة الخطى وانطفاء الروح في لحظة وإضاءتها في لحظة أخرى . . استدارة الروح في الرمق الأخير إلى الجسد .

أن تستسلم للخوف . . يعني أن تستسلم للتيار . . وتسير معه إلى النهاية . . حيث كومة الوحل والطين . . حيث لا تستطيع أن تطهر نفسك .

أفتح عيني بصعوبة ولا أفتحهما ، أقف ولا أقف ، حيث قدمايَّ رخوتان بدون مفاصل ، وكأنني بلا عمود فقري يقيم صلبي . . أركض ولا أركض ، كل شيء حولي أسود ورماديّ ، حيث الدخان الكثيف الأبيض يملأ صدري . . ويغطي عينيّ ، أشعر بالتراب الساخن تحت قدميَّ وكأنني أمشي في فرن!

الزجاج يتطاير ، الصغار يتعلقون بثيابي ، النوافذ تقع وتتناثر ،

أتفرَّس الوجوه التي تركض ، تذهب وتجيء ، تضيع الأصوات ، تنغمر ثم تطفو ويعلو أنين خافت ، أرى الناس سكارى وما هم بسكارى ، هذا المشهد ليس غريباً عليَّ . قرأتُ عنه قبل ذلك ، إنه يوم القيامة!

أرى وجوهاً ولا أتبين ملامح ، أسمع أصواتاً خرساء ، أشعر بدوار عنيف ، أحاول أن أخرج من هذا التيه فأغرق في الجرح وأغتسل بالدم .

أبدو مستسلمة لشيء غامض وحارق ، أكاد لا أصدق ما أرى .

الظلام حالك والطائرات أفرغت حمولتها للتوّ فوق رؤوسنا ، في هذه اللحظة أتاني صوتك ، أحاط بي يكللني بلحن ملائكي انتبهت له كل حواسي

أراك ترنو لي وأسمعك صوتاً هادئاً قوياً :

ـ الظلمة ليست حقيقية ، إنها ظل لمخاوفنا وهزائمنا

في هذه اللحظة بالذات امتلأتُ قوة وتحول الخوف إلى زجاج هش أدوسه بقدمي فيغدو فتاتاً!!

في هذه اللحظة أشعر بك حولي ، أطير تحت جناحك ، أشعر بأن يد الله معي تشدُّ على يدي فأغدو أكثر احتمالاً وهدوءاً

قلتُ لك وبصوت واهن وضعيف :

ـ في كل مرة تأتي إليَّ ، تترك فيَّ بعضك ، تنثر عطرك على يدي فتغدو يدي وردة!

تبسمت بودٍّ آسر وكأنك ترجوني وقلتَ :

ـ وماذا تركتُ لك هذه المرة؟

لم أجبك يومها ، لا أدري أين هربت الكلمات وبماذا تدثرت ، لم أستطع أن أكحلها بمشاعري وما يجول في خاطري ، أحسست بأن لا حاجة للكلمات فهي اعتيادية وبسيطة مهما حاولنا تحميلها من المشاعر

فهي لا تستطيع أن تحمل إلا اليسير

في هذه اللحظة أستطيع أن أقول إنك كنت تسمع ما وراء كلماتي الصامتة . .

(تركتَ فيَّ بعضاً من نخوة الفرسان ، بعضاً من يقينك . وألف . . ألف مهرة تقوى على القفز فوق النار)

في هذه اللحظة أفتقدك ، غيابك عني أوجعني ، ففي القلب زهور لم تتفتح بعد .

أتفادى الكثير من الأصوات والمشاهد ، أخرج بسرعة ، أحمل أطفالي الثلاثة وأقفز فوق النار كما علمتني ، أرى وميضاً هنا ونوراً هناك ، أرى جارتي تركض وراء ابنها (المصاب) بشظية كبيرة في قدمه ، يركض من الرعب ودمه خيط متعرج يكبر ويكبر وأنا وراءهم أرسم طوق نجاة ، لا شيء يصالحنا سوى الوجع ، أشم رائحة شواء لحم آدمي ، أنظر فإذا برجل يحمل طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها السنة والنصف ، تغمض عيناً وتفتح أخرى من حلاوة الروح ، كانت معفَّرة بالتراب عندما وضعها الرجل في سيارة الإسعاف ، رأيت جلدها يسيل ويتشقق في يد المسعف كما تتشقق قطعة قماش لكن بدون صوت!

الحرائق تشتعل هنا وهناك ، تلتهم الجمال والعشاق والثوار والأطفال والأوراق والأقلام ، أسير كأني وحيدة ولا أحد حولي ، أسير ولا أدري إلى أين ، بدا كل شيء خراباً ودماراً وفوضى

الآن وأنا أستعيد المشاهد وأمسك بقلمي ، أتوغل وأتوغل فأشعر بأن هيام ورطتني في الكتابة دون أن تدري ، أشعر أنها أقدر مني وأكثر جرأة ، أتنقل بين أوراقها الصفراء وأوراقي البيضاء الجديدة ، أهزُّ أوراقها

الصفراء فتسّاقط عليّ نجوماً وأهزُّ أوراقي الخضراء التي أورقت لتوِّها فلا نجوماً تدنو ولا سحراً يسيل!

ما الذي جعل هذه الأوراق الصفراء تعرف طريقها إليّ؟

ماذا يريد الله مني؟

هل خطر ببال هيام أن امرأة مثلي ستستظل بظلها وتستمد منها القوة والوهج وبعضاً من الارتياح؟

بماذا أشبهها؟ وبماذا أختلف عنها؟ أعرف أننا لا نشبه بعضنا لكن ماذا يعني أن أعيش تفاصيل عشقها مرة ثانية في يوسف؟

ماذا يعني أن أمسك القلم لأكتب عن البحر ذاته ، والمطاردة ذاتها ، الجحيم ولذة النعيم ذاتها التي ننغمس فيها للحظات فتنسينا شقاء الدهر كله!

أكبر خيانة يمكن أن أمارسها الآن هو أن لا أكتب ، وأصعب عذاب هو أن لا تفتح قلبك لوطنك وورقتك لقلمك . حتى وإن كنت تشعر بعدم القدرة . . بمجرد أن تمسك القلم ستتدفق الذاكرة بما لا تتوقع!!

بطرف عيني أقرأ بعض كلماتها التي غرزتها على صدر الورق . . ثم أنقل عيني إلى طرف الأرض التي أمشي عليها لأرى إن كنت أستطيع أن أغرز بعض ما أرى من وجع ودم على صدر الورق .

أقرأ ما تكتب بنهم . لدرجة أشعر أني أكمل جملة كتَبتَها وتكمل جملة أكتبها

كيف سأكمل؟ وإلى أين سأصل؟ لكن هذه الأفكار انتهت عندما ظهر وجه تلك المرأة أمامي فجأة!!

تفحصتها مليّاً ، كانت قد تطايرت فوق ركام بيتها ، اعتقدت لوهلة أنها ميتة أو على الأقل مشلولة ، أخذت أزيح الحجارة الساخنة من فوق

جسدها ، الرمل تحتها كالبركان ، لمستُ جسدها ، كان حاراً وكأنه يشتعل ، أمسكتُ بيدها أريد أن أسحبها من المكان وإذ بيدها تخرج كاملة من جسدها وتقع في كفي! أخذت تصرخ وتنادي على أولادها وزوجها ، سمعتهم ينادون عليها ، لا أحد يرى الآخر ، مجرد أصوات تتداخل

شعرتُ بقلبي يتوقف من الرعب ، لم أعد أشعر بنفسي ولا بمن حولي ، كان كل شيء فوق الاحتمال ، حزن على حزن ومشهد يتراكم فوق آخر ، مشاهد سائلة لا تجف ، لا تترك لي فرصة التوقف أو التعبير . . أترك نفسي معلقة بين تلك المشاهد وما أصعب أن تترك نفسك معلّقاً!

تنفست دخاناً أبيضَ كثيفاً ، شعرتُ بالاختناق ، لم أكن أخاف الموت ، كل ما كنت أخافه أن تضيع هذه المشاهد دون أن يعرف بها أحد ، أن يموت المظلوم دون أن يعرف العالم من هو القاتل ، أخاف أن تحتشد تلك القصص في صدري كما الدخان الكثيف الأبيض الذي يملأ صدري فتقتلني قبل أن أكتبها وأرويها ، في تلك اللحظة كنت أريد أن أكتب بقوة حتى يعرف العالم أن جرح غزة مازال مفتوحاً ، ومع ذلك أستطيع أن أقول إن تلك الأوقات العصيبة هي التي ملأت روحي نوراً حقيقياً ، عرفت في تلك الأوقات أن الحياة عالم مؤقت كل شيء فيه ليس حقيقياً ، لكن لحظة تذوق الموت بطرف الملعقة تجعلك في حالة انكشاف مع الله والتصاق بمن حولك .

تلك الأيام شعرتُ نفسي اثنتين ، وداد الخائفة ، المخنوقة التي يخفق قلبها ألماً ، تجلس بجانبها وداد القوية المشرقة التي تبتلع ريقها بيسر وكأن لا مرارة فيه . تتجادلان ، تختلفان ، تتشبثان كل واحدة

برأيهـا ، كل واحـدة تحـاول السـيطرة على الأخـرى وأن تجـعلهـا تحت عـباءتهـا ، تصـمت وداد الخـائفة وتنتصـر وداد القـوية ، وداد القـوية تمر بمحاذاة الألم تكتبه دون أن تهدهد وجعها ، دون أن تتنهد حتى!!

هيام
عطر الياسمين

يعلمكِ الزواج من مُطَارَد أشياء كثيرة ، منها أن كثيراً ممن حولك يرمقون المحتل ــ وهو يهيئ الأكفان للشعب وللمقاومة ــ بعين ، ومع ذلك يغمض العين الأخرى ولا يهتز له رمش!

ويذهلك أن يتعرى بعضهم أمامك بطريقة مخجلة دون أن يشعر بتأنيب ضمير!! يقول إن : (الوطن كذبة مثل غيمة تمرُّ ولا تمطر)

يتعرَّون ويعرون الوطن لا بنصرهم الباطل ولكن بحيادهم عن نصرة الحق .

أن تتزوجي مقاوماً . . يعني أن يكون الوطن على مقاس يده وبلوْن دمه وبحجم قلبه ، أن يأخذ بيدك إلى الله فتعرفين أن للسماء أبواباً لا تغلق ، وأن للمقاومة لحناً لا بد أن يُسمع!

أن تتزوجي مقاوماً يعني أن تضيئي كل أنوارك ويصبح هو أرضك وسماءك!

الآن أنظر من بعيد فأرى تلك الفتاة التي لا تتجاوز الـ١٨ ربيعاً والتي قدَّر الله لها أن تتزوج مقاوماً ، تتعلم منه أن تسلك طريقاً وعراً دون أن تهاب ، وتكتب قصيدة تتدفق حروفها كما البلور . تلك الفتاة التي أصغت لموسيقى إحساسها ، هذا الإحساس الذي لا يمكن أن يُكتب أو يُفسّر . فروعته في كثافته وغموضه!

قبله كنتُ أشعر بفوضى وتشويش داخل أعماقي ، أعاد ترتيب أولوياتي ، به ومعه أصبحتُ أفهم ذاتي . . صرْتُ أكثر قدرة على التعبير عن نفسي ، عرفتُ فلسفة الأحداث وما وراء الكلمات ، صرتُ مثقلة بالوطن مثله تماماً ، تخفق أجنحتي شوقاً لكل ذرة تراب أقف عليها ، كان سلاحه يملك القدرة على جعلي أفرح وأحزن في آن واحد!

قطفتُ محبته وشفاعته ، ولم أكن أعرف ما ينتظرني . . ولكنني عرفتُ شيئاً واحداً وهو أن الفتيات في الأرض كل الأرض يتزوجن ذكوراً أما أنا فقد تزوجت رجلاً بأجنحة ، أجنحة لها القدرة على الحب المزدوج الذي يخفق في خطين متوازيين دون أن ترجح كفَّة على أخرى!

كانت له أجنحة قادرة أن تبعث الوطن حيّاً ، تجعله يتخطى مؤامرات السلام الوهمية التي جعلت الوطن على المِقصلة

كم كنت أطرب عندما يناديني بشجرة الصنوبر حيناً ، وحيناً بعطر الياسمين!

وعندما سألته لماذا تراوح بين شجرة الصنوبر وعطر الياسمين ، قال لي :

-في المواقف الصعبة أراك كشجرة الصنوبر قوية وشامخة تقف في وجه أعتى الرياح . .

وأراك كعطر الياسمين تتهادَين أمامي شفافة رقيقة فيخفق قلبي شوقاً وحباً وأنت بين يديّ!

قلتُ له وأنا البكماء التي لا تجيد الكلمات :

-وأنت الجدول الرقراق الذي يروي ظمأ أيامي!

شهدتُ معه قدر الله في الغياب والحضور ، وعلمتُ أن البلاد التي

أفارقها ما فارقتني أبداً ، وأن الله يبدل الأهل بالأهل فتستأنس الروح وتجد السلوى .

لا أزعم أن أول يوم لي في غزة كان أجمل أيامي . . لكن كان فيه شيء مختلف ، فيه إشارات لم أفهمها ، كان شعوري مرتبكاً لا أستطيع أن أصفه ، استغرقت بضعة أيام للتعرف عليه ، لقد شعرت بأن الله يعوِّض الفاقدين الأرض والأحباب وكأنهم ما فقدوا وما فارقوا ، فيشق أنهاراً من الصبر ويزرع جنة في القلب .

أنيستي وأمي الثانية كانت الحاجة (أم هانئ) التي نزلتُ ضيفة على بيتها في جباليا ، كانت الأم التي تأتي لي بالطعام والشراب كل يوم ، وعندما اعترضت وقلت لها ولأهل بيتها لا بد أن أساعدكم ، لم تقبل وقالت أنت ضيفتي إلى أن تعودي للضفة

في الأيام التالية صِرْت أنزل لأفطر عندهم ، خاصة عندما يكون يحيى غير موجود .

أجلس بجانبهم على المائدة ، أنظر بدهشة . . فالمائدة مزينة بالفلفل الأحمر والأخضر والأصفر . . قلتُ لهم ممازحة :

ـ في اشي ناسين تحطوا عليه فلفل؟

حدقوا مستغربين وقالوا لي :

ـ ما هو؟

ـ قلت لهم : ما عرفتوا؟

ـ قالوا : لا

ـ قلت لهم : الشاي . فضحكت الحجة أم هانئ حتى أمسكت بخاصرتها .

أمشي تحت جناح الحجة أم هانئ ، أذهب للطبيب بصحبتها ،

أفحص على اسم كنّتها أم ربيع ، وعندما عرفت أني حامل بابني الثاني أقامت لي حفلة مازالت مشاهدها تسكن أهداب عينيَّ

أرجع إلى الوراء قليلاً

قبل العيد تأخذني الحجة إلى السوق أنا وطفلي الصغير ، تشتري لي فستاناً اخترته بنفسي ، ولا أنسى لونه القرمزيَّ ولا ملمسه الحريري ، واشترت لطفلي (شورت وقميص) وكذلك لزوجي ، ولما عدنا إلى البيت سألني يحيى :

- من أين لك هذا؟

قلتُ له :

ـ الحجة اشترتهم لي . سكت وأحسستُ أن الأمر أزعجه

وعلى حين غرة دخلت الحجة علينا وكانت قد سمعته وعرفت من نبرة صوته أن الأمر قد أزعجه وكسر شيئاً في روحه فقالت له

ـ اسمع يا يحيى . . انتو ولادي وكسوتكم عليّ مادام أنتو في بيتي وبزعل منك إذا ثاني مرة بتزعل ليش بشتري لكم ، أنا مثل إمك ياولد!

سكت يحيى وعاد إلى الوراء ليرى ذلك المشهد الذي لن ينساه يوم قدم إلى بيت أم هانئ وكانت تعجن .

وقفت تنظر إليه ويداها ملأى بالعجين ، ودون أن يقول لها أحد من هو الضيف القادم عرفته وقالت له :

ـ انتَ يحيى . . ياحبيب أمك ، ليش ضعيف ونحيف هيك؟ من اليوم وطالع إنت حصتي وابني الي ما نزل من بطني لأنك غريب ديار (مش مثلكم) وأشارت إلى باقي المطاردين الذين كانوا بصحبته

سكت يحيى لأن حب أم هانئ نضج في قلبه على مهل ، فهو لم

ينس أنها كانت تخبئ له كل شيء يحبه ، التوت والبسكويت بالحلقوم واللحم النيئ ، تتفقده صباحاً ومساءً ، تأتي له بكاسة الشاي التي يحب من يدها ، تعرف ما يحب وما يكره ، وكثيراً ما سمع دعاءها الدافئ له في ظلمة الليل ، ولمس خوفها وارتعاشها عليه .

عندما ولدت كِنتهم أم ربيع ، كنتُ أنزل كل يوم إليها في الطابق السفلي وأدهن الصغيرة بزيت الزيتون وهم ينظرون إليَّ بدهشة ، فأهل القرى في الضفة يقومون بذلك كل يوم إلى الأربعين حتى يتشرب جسد الطفل زيت الزيتون ويصلب عوده ، أما أهل غزة فلا يعرفون ذلك .

قالت لي الحجة :

- متى تعلمت؟

قلت لها :

- كنت أشوف ستي تدهن إخوتي وخواتي الصغار وولاد عمامي وعماتي وتعلمت منها

قالت لي :

- ماشاالله عليك ، بس والله لساك صغيرة على هالشغلات!!

وفي صباح أحد الأيام جاءهم ضيف وفي حوزته أرنب هدية لهم واحتاروا كيف سيذبحونه!!

لم يكن يحيى موجوداً . . فقلت لهم : أنا بذبحو!! وفعلاً أمسكت الأرنب وذبحته وكل أولادها وكناينها ينظرون إليَ وهي تقول لهم :

- شايفين أخت الرجال شو بتعمل!!

في الليلة قبل الأخيرة يأتيني صوت الحجة أم هانئ المليء بحة حنان . . تنادي عليَّ أن أنزل لأشرب عندها فنجان قهوة لأن يحيى

سيكون خارج البيت . نزلت عندها شربنا القهوة ثم قالت لي :

ـ ما رأيك أن تنامي عندي الليلة ؟ ولكن قبل أن ننام لا بد أن نخبئ السلاح الذي أتي به يحيى . نهضتُ فوراً ، أعطيتها سلاح الجاليلا ، مسحته ، ثم غطينا السلاح بقماش ووضعناه في برميل كبير مليء بعلف الدجاج

ذهبنا إلى فراشنا في غاية السعادة وكأننا شاركنا بعمل بطولي لم يمض وقت طويل من الليل وإذ بنا نسمع أصوات مسلحين يقفزون من السور .

قلتُ في عقلي :

ـ ياهارب من عزرائيل لاقيك قبّاظ الارواح

دخلوا المنزل (رجال السلطة الفلسطينية بصحبة مجندة إسرائيلية) ، نظرت إليَّ المجندة بريبة ثم سألت عني فقالت الحجة :

ـ هذي بنتي .

فتشوا كل البيت لم يجدوا شيئاً . ثم ذهبوا إلى البرميل ، أحد الجنود وضع سلاحه في البرميل وبدأ يحرك يميناً وشمالاً ، وأنا والحجة صرنا نقرأ قرآناً ، شعرنا بالخوف على السلاح ، فيحيى كان عنده سلاحان إم١٦ وجاليلا ومسدس ووبضع قنابل كانت كلها في البرميل .

من أين أتت هذه القوة؟ لماذا جاءت لنا فكرة أن نخبيء السلاح في برميل العلف دون سواه؟ لو خبأناه في مكان آخر لكان أفضل!! وصارت الأفكار تأخذنا وتعود بنا إلى أن صرخ الضابط :

ـ بلاش توسخ سلاحك ، خلص . وتركوا البرميل وأنا وخالتي أم هانئ ننظر في بعضنا!!

صعدوا إلى سطح الدار ، ووجدوا مواسير نحاس كان يحيى يستخدمها لصناعة المتفجرات ، أمسكوا بالمواسير وأخذوا هانئ ابن الحجة وقالوا له :

ـ نحن نراقبكم ونعرف أنكم تؤوون مطاردين . . نعرف أن يحيى ويوسف عندكم!!

وقبل أن يأخذوا هاني سمعته يقول لأمه بهمس :

ـ لا تهتمي بزوجتي ولا بأولادي ، فقط اهتمي بزوجة يحيى وابنها ، حينها أيقنت أن قنديل يحيى لن ينطفئ وأن جبيني لن ينحني!

خرجت السلطة والمجندة الإسرائيلية من البيت وبعثت الحجة أم هانئ أحد أولادها الآخرين وقالت له :

ـ وقِّف في الطريق وإذا شفت يحيى أو أحد المطاردين قل لهم : إنه بيتنا انكشف ولم يعد آمناً

وبعد يومين بعث لي يحيى شاباً كي يأخذني من بيتهم ، لا أذكر ماذا قلتُ لهم ولا ماذا قالوا لي ، كل ما أذكره أن أقدامي صارت ثقيلة ويداي باردتين ، وأويت إلى دمع سخي يحفظني من الكرب الذي أنا فيه .

كان صوت بكاء الحجة أم هانئ وأولادها وكناينها والصغار يوقد فيَّ ألف جمرة .

خرجت من عندهم بعد ثلاثة أشهر ولا دمع في عيني! لا امرأة بمثل مصابي ، أول مرة أركب الكارّة كانت عندهم ، أول ذهاب إلى البحر بصحبتهم ، وأول مرة أتذوق سمك غزة ، كان عندهم من يد أم هانئ

لا صحبة تشبه صحبتهم ولا نشوة تشبه فرحي معهم .

لم تَسِلْ دموعي بل تحجرت في مكانها ، وشعرت بارتباك وفوضى غريبة تجتاحني كتلك التي كنت أشعر بها قبل أن ألتقي بيحيى . . حينها حضنني يحيى فعرفت سر تلك الفوضى . . ومكمنها

مكمنها الأول كان الخوف على الأيام القادمة الغامضة!!

ومكمنها الثاني الحنين والحب لهذه العائلة التي نذرت نفسها وكل أفرادها صغاراً وكباراً لخدمة المقاومة والمقاومين!

ومكمنها الثالث الغضب من الجواسيس والعملاء أياً كانت تسميتهم سواء أكان جاسوساً صغيراً أم على شكل السلطة!

وداد
أم سعيد الهشيم

قد تحمل لك الحياة مشهداً كنت تركض لاهثاً مذعوراً حتى لا تراه ، وفجأة يتلقفك المشهد وتقع بين يديه!

(زوجة شهيد تتلقى التعازي)

كم حاولتُ الهرب من مشهد يطاردني (استشهاد يوسف) لكن ها هو المشهد يتلقفني عنوة فأقع في حجره .

كلنا في غزة نمارس لعبة الهرب . . الهرب من قدر يتسابق نحونا كلنا يحاول أن يضع غلالة على عينه حتى لا يرى المشهد القادم ، لكن المشاهد تزحف صوبنا بتؤدة وتصميم بالغ .

كم أغمضت عينيَّ كي لا أرى القادم الأسوأ . . لكنّ الترقب ثعبان يلتف حول رأسك ولا يُخرج إلا الأسوأ!

أسلِّم عليها . . أحضنها . . أجلس في حضرتها كتلميذ يريد أن يتعلم من معلمه

تبدو هادئة ومتماسكة . فقط دمع مشتعل يعاتب من خرج دون وداع .

أستغرب وأقول في سري :

ـ يا إلهي كيف استطاعت أن تحول الأعواد الجافة المحترقة في صدرها إلى أغصان خضراء؟!!

أي قوة تحملها تلك المرأة التي جعلت من حزنها ترنيمة تتغنى بها!!

في المسافة بين الحقيقة والخيال صبّار يلتصق بالجلد ثم لا يلبث أن ينغرس فيه!

يبدو أن الخيال أصعب وأمرُّ من الحقيقة ؛ ذلك أنه يُكمل المشهد ويضيف ويربك ويهز بعنف حيث يُطل من الحواشي أكثر مما في صلب الصورة .

تجلس في وسط الغرفة التي تعج بالنساء . . تنثر عطره في فضائنا الصامت . . تقول :

ألبسته اللباس العسكري بيدي . . كما أفعل كل مرة . . كنت أعلم يقيناً أنه ذاهب للرباط ، ولكنني لم أكن أعلم أنها المرة الأخيرة التي سأراه فيها

(أي رحيل يحمل لون الفرح ونثاره سوى رحيل الشهداء!!)

أنصتُ لهمس روحها وهي تتحسس صور زفافهما . . فهي عروس لم يمض على زواجها سوى سنة ونصف . . تهمس بحرقة :

سنة ونصف قضيناها سوياً كان هو الغار الذي ألجأ إليه في ساعات حزني فيحوِّل حزني إلى غيمة ماطرة راقصة ، كنتُ أشعر بفوضى تخترق روحي ، فكان هو من يعيد ترتيب أبجديتي فأخرج من كهفه متفائلة . . راضية

الصوت السحري القادر على انتزاع ضحكتي . هو صوته

كان يصرُّ أن يغسل قلبي المنهك . . بثلج ابتسامته

يتحين الفرص لكتابة الشعر ونسج الكلمات التي تفرحني ،

وعندما يحدث أي خلاف بيني وبينه . . يأخذني بين ذراعيه ويبادر إلى مصالحتي وإن كنت مخطئة

ساعة خروجه من المنزل . . وقفت على باب الدار أودّعه وقلتُ له ممازحة :

ـ دير بالك على حالك بلاش تموت .

كنتُ أعرف أن هذه الكلمة تغيظه . . فقال لي :

ـ قولي ي . . س . ت . . ش . . ه . . دا! وضحكنا سويّاً كما لم نضحك قبل . عاد ليودعني مرة أخرى وخرج . . دقائق وعاد مرة أخرى ليقبل رغد .

عندما أنجبت رغد تعلق بها كثيراً ، كان يضعها دوماً في حضنه . . يهدهدها ويغني لها . . يطعمها بيده . . يحملها وأنا أتناول طعامي ، لا يتركها في يدي طوال وجوده في المنزل

يوماً بعد يوم ازداد تعلقه بها . . حتى إن أمه التي كانت تجلس قبالته في يوم من الأيام شعرت بفيض الأبوة قد أخذه . . وكأنها خافت . . وهي التي نذرت أولادها الستة لثرى فلسطين . . فسألته وهي تضع يدها على قلبها . . وتفرك أصابعها بحركة دائرية على صدرها (وفلسطين)!!

فقال لها مبتسماً :

ـ لا شي يملأ قلبي سواها!

عرفتُ حينها أنه متيم بحبيبة أخرى!

سمعته قبل أيام من استشهاده وهو يقول لأخته

-بتعرفي جاي عبالي أستشهد هاليومين .

اهتزت حنجرتها بدمع مخنوق وقالت :

ـ اسمع ما بدي أسمع هالكلام . . ما بحب أسمعه ، بالله عليك خلص .

بلع ريقه وكأنه يتذوق طعم الشهادة وأكمل

ـ موج من فوقه موج من فوقه سحاب . . هذه هي غزة الآن . .غزة بلا عيون في عمق الظلمات! أصلاً ما فائدة العيون وليس هناك نور!

لم أعد أحتمل أن أبلع عجزي وأتنفس رجولة مهروسة ببساطير الأعداء والإخوة .

ـ بعرف إنه ما في أحلى من الشهادة ، وبعرف إنها أمنيتك وأمنية كل حر لأنها الطريق الوحيد لنتخلص من الذل والعار . . بس ما بحب تحكي عنها . . لأنه الشهادة تعني الفراق .

نظر في عينيها وقال متجاهلاً ما سمع :

ـ بتذكري لما كنا صغار ودخلوا جنود الاحتلال على دارنا وكسروا كل الأثاث وفتشوا ورموا كل (المرطبانات) على الأرض وخلطوا العدس بالسكر بالملح وكبوا الزيت على الأرض وقلبوا الدار ، يومها بس عرفت إنهم هدول أعداءنا ، يومها بس حسيت بحرقة قلب إمي وهي بتدعي عليهم وبتتوعدهم وتقول :

ـ عندي ست واللّه ولاد اللّه يخليهم ينسوكم حليب أمهاتكم والله لأخليهم يرجعوكم من وين ماجيتوا يا لمم!

تبسم وفرك أصابعه ببعضها وقال :

ـ كأنها دعوة أمك!

تحكي ويشتعل الحضور بالبكاء . . تنسج من عشقها المسفوك ما يروي ظمأ فلسطين للبطولة والرجولة ، فالرجولة ليست ذَكَراً . . فقد تكون أنثى تنثر عطرها صبراً وكرامة ونوراً وعطاءَ!

أتأملها تحضن طفلتها . . تُمسِّد شعرها وتعيد حكاية كان يحكيها سعيد لابنته كل يوم . . إنها حكاية يحيى والخروف ، نتفيأ بصحبتها تلك الحكاية التي تُطل كوردة في وسط القهر والعجز .

يضع رغد في حضنه . . يأتي بالورق والألوان ، وأحياناً يأتي بلعبة على شكل خروف صنعه بنفسه من الصوف الأبيض والأزرار . . يحكي الحكاية لرغد دون أن يكسر الكلمات ويبدل الحروف ، دون أن يناغيها ، بل يحكي معها وكأنها كبيرة وواعية وفاهمة . أعترض وأقول له :

ـ البنت لسه صغيرة وما بتفهم على كلامك الكبير!

فيجيب بتصميم :

ـ لا تظني أنها لا تفهم ، إنها تُخزن كل ما أقوله ليخرج في يوم ما كالبركان .

آه . . لو تعرفين ماذا يعلِّم اليهود أطفالهم . . ما قلتِ هذا الكلام . . العربي الفلسطيني في قصصهم الأدبية هو شرير ولص وظالم ، أسنانه صفراء متعفنة ، عيونه تبعث على الرعب ، جبان ومتلون ، يعلمونهم أن لهم الحق الكامل في فلسطين ، وأنها بلادهم ، وأنا أريد أن أعلمها كيف نطرد المحتل ، أريد أن أعلمها الحقيقة التي قاموا بتزويرها

يمسك بخروفه الوهمي ويبدأ الحكاية :

(كان يا ما كان في قديم الزمان . . شاب جريء وذكي اسمه يحيى ، بيحب وطنه فلسطين ولأنه بيحبها . . فكر بكل الطرق حتى يحررها من الصهاينة ، ففكر بفكرة وجاب خروف ميت وفرغوا من أمعائه ، ولأنه ذكي في صناعة العبوات الناسفة والمتفجرات . . صنع عبوتين بمساعدة رفاقه المجاهدين وزرعها داخل بطن الخروف الميت

وأوصلهم بسلك كهربائي ينفجر عن بعد . وقامت مجموعة فدائية بوضع الخاروف على بعد (٥٠٠) متر من محطة الوقود إلي جنب مفترق نتساريم ونحال عوز . . يعني هون جنبنا يا رغد ، ولما اقتربت سيارة الجيب التابعة لحرس الحدود وكان يوم ٩٥/٢/٢١ ضغط يحيى على زر التفجير فانفجرت السيارة العسكرية ومات كل من فيها وكل الجنود الصهاينة إلي حواليهم .)

أرهقتني هذه المرأة بصهيلها الذي لا يهدأ . . بصدرها الواسع الذي لا يعرف الارتعاش ، وفمها الرطب الدافئ بحكايا مشتعلة بالجرح الساخن الذي لن يبرد .

بصوت غير مسموع . . أتساءل :

كيف لي أن أتشبه بها؟ أقبض على حسرة الفراق بيد غير مرتعشة أبعثر الوجع . . أنثره على أرض مبللة بالدم فتورق مزيداً من المقاومة!

أفيق على صوت أم الشهيد :

كنتُ أسمعه دوماً يدعو بعد صلاته (اللهم خذ من دمي حتى ترضى) يا رب لا تأخدني إلا بعد ما أقتل عدداً كبيراً من اليهود . . يا رب اتصاوب وأظل أنزف لحتى يتصفى دمي وما حدا يسعفني .

أركض نحوه وأقول له :

ـ ليش يمّا هاالدعوة؟ ليش بدك دمك يظل ينزف وما حدا يسعفك؟

فيقول :

ـ حتى تأتيني الشهادة على طبق من يقين

وهكذا كان . . قتل ستة من اليهود وتركوه ينزف حتى تصفّى دمه كما أراد .

تبتسم وتدعو له

ـ الله يرضى عليك يمّا . . فيما تتعملق أمومتها وتلتهب جمراً يوقظنا

تتسع حدقات عيني وأنا أسمعها تقول :

سمعته . . شيخ الجامع وهو بيقول لزوجي هامساً عندما فتح له باب الدار فجراً : لا تخبرها . ظناً منه أني لن أحتمل أن يملأ رئتي غبار الموت . . لا بل عبير الشهادة .

حينها سجدت شكراً لله ، ورفعتُ صوتي كي يسمعه الشيخ وقلت لبناتي :

ـ حضروا القهوة السادة .

الصمت يسكن الغرفة التي تضج بالمعزين . . أسحب أقدامي وكلماتها تحاصرني ، تمد يدها بلطف لتخرجني من الرمل الذي دفنتُ رأسي فيه ، أفتح عيني لأول مرة لأرى أشياء لم أكن أراها ، أفرك عيني لأكتشف أن خلف الدمع المالح . . صورة عريس كُحْل عيونه القرآن وبسمة شفتيه فلسطين .

من عينيه الناعستين يطلّ بحر غزة بموجه الهادر لُيغرق من باعوا المرافئ ولوّثوا الذاكرة وشوهوا الحقيقة

أعود إلى بيتي . . أجمع أطفالي حولي ، وفي عيني بريق عين أم الشهيد وزوجته ، أُشعل حكاية يحيى مع خاروفه يا هيام . . أُعيد نسجها من جديد بصوتي ، أحكيها وأسمع أطفالي يحكونها لأطفال الحارة . . فالشهداء هم البسمة الخضراء التي لا تذبل .

وداد
شهوة الكلام

لكل منا خزانة أسرار مثقلة بالوجع والمرارة . . طافحة بالذكرى والحنين والدمع والأحلام ، أحياناً تُفتح الخزانة بلا سابق رغبة فتندلق المشاهد والحكايا لتشتعل وتتوهج من جديد في لحظة!

وأحياناً تفتح خزانتك بنفسك . . فتندلق زوبعة من الأحاسيس والمشاعر غير الواضحة وتسأل نفسك :

ـ ما الذي فعلته بنفسي؟

ـ كيف راكمت كل تلك الأسرار؟

تدخل في حوار مع ذاتك تهزمها حيناً وتهزمك حيناً آخر : تتعب . . تغلق الخزانة وتخرج .

دخل حياتي ليصبح أكبرالأسرار وأجملها ، سِرُّه كان من نوع آخر ، هو نوع من الأسرار لا يحتمل حتى الهمس ولا الفضول .

كيف احتملت أن أضيف سراً بهذا الحجم وبهذا العشق لا أدري؟!!

كأنه ملك شقّ صدري وسلّ منه ما فُطرت عليه الأنثى من حبٍّ للفضفضة وزهو وحب للظهور برفقة من تحب أمام الناس .

كان حجم الأسرار يزيد يوماً بعد يوم . . خزانة أسراري كانت صامتة تأخذني لمسافات بعيدة في المجهول . في بعض الأحيان كنت

أسمع من خزانتي موسيقى مطر يروي أغصاني المتعطشة ، وأحياناً أخرى أشعر أن كل الطيور التي تؤنسني رحلت .

(إذا زادت الأسرار عن حدها فإنها تحني ظهرك وتوجع قلبك)

مقولة لطالما سمعتها ولكنني وضعت أسراره فوق رأسي وسرت بها كفلاحة فلسطينية فاستقام ظهري وعلتْ قامتي!

أسرار يوسف كانت من نوع آخر لا تحتمله الخزانة ، ولكن يحتمله القلم ، فكنت أتخفَّف من حملي الثقيل بالكتابة . .

كل لقاء مع يوسف كان سرِّيّاً!! لا يعلم به أحد . . كل لقاء له بصمة كبصمة الإصبع لا يمكن أن يتكرر أو يتشابه ، المكان مختلف ، التوقيت مختلف ، المرسال مختلف ، النبض يكتسي البنفسج حيناً ، وقصائد حيناً آخر

الذهاب من طريق والعودة من طريق آخر ، رجفة الفرح في عيني حيناً ، وفي صدري أخبئها حيناً آخر ، الطبخة التي أحملها له أيضاً مختلفة ، لكنها تشبه تماماً ما يشتهيه وكأنه وصّاني بها من قبل .

الناس الذين سألتقي بيوسف عندهم أيضاً مختلفون . أحياناً أحبهم وأشعر كأنهم أهلي ، وأحياناً أشعر بحاجز بيني وبينهم ، أحياناً تفوح رائحة عشقي وأحياناً أستطيع أن أغطيها!!

برمجت كل حياتي . . ساعات نومي واستيقاظي ، ذهابي وإيابي . . وفق مؤشر ساعته .

عليَّ أن أحتفظ بالتفاصيل كافة التي قد لا تكون مهمة في نظري ؛ لأن ما قد يكون سخيفاً في نظري سيكون قاتلاً بالنسبة ليوسف .

في كل مرة أخرج من بيتي . . لابد أن أغيِّر لون ثيابي وحذائي

وحقيبة يدي حتى لو خرجت في اليوم نفسه أربع أو عشر مرات!!

وحتى عندما أذهب لبيت أهلي كان لزاماً عليَّ أن أسلك في كل مرة طريقاً مختلفة ؛ حتى لو كانت الطريق أطول وأصعب وأشق .

لم أكن أملك (هاتف جوال) ولم يكن مسموحاً لي أن أستخدم أي وسيلة اتصال حديثة ولا غير حديثة . ولا أي وسيلة تخترق الهوس الأمني .

مكتبة الرمحي أحمد ٤٨

هذا الأمر لم يكن يزعجني . . فأكثر ما يميزني عن غيري هو شدة الحيطة والحذر ، فمنذ طفولتي لم أكنْ أقطع الشارع حتى لو فيه سيارة واحدة ولو كانت السيارة بعيدة ، مما كان يثير حفيظة أختي إيمان فتصيح بي محذرة وغاضبة :

ـ مهل عليكِ ياست وداد ، أنا هسيبك لأنه جرس المدرسة حيرن!!

منذ متى كانَ للضوء لسان؟

هكذا كنت أتساءل . . فأنا امرأة الضوء ، أضيء له حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود . . كنتُ أعرف أنني أدفع ثمن ارتباطي به في صمت وكتمان ، قد تشفق عليَّ أمي . . أمي التي وهبتني له ، وقد يشفق عليَّ أبي الذي وقَّع عقد شهادتي عندما وقع عقد زواجي ، وهذا أحتمله أيضاً ، ولكن ما لا أحتمله أن يمضي قبلي ؛ فأنا لست أطيق رحيلاً ثانياً!! إما أن أرحل قبله أو نرحل سوياً!!

كنت مختلفة في كل شيء . . يجب أن أكون كذلك . . في لباسي وحديثي . . بأحلامي . . بأسراري . . لم أكن أشبه أيّاً من النساء ، عندما يراني أحدهم لا يمكن أن يخطر بباله ولو خاطر أني زوجة القائد الذي مرَّغ أنف «إسرائيل»!! ، لقد أتقنتُ الدور حتى قال يوسفي يوماً :

(لو طلبتها مفصلة على المقاس ما كانت ستكون هكذا)

حكايتي معه تشبه حكاية ذلك البحر . . له بداية ولكن لا أدري أين النهاية ومتى . لا أدري أن هذا البحر على امتداد العشق . . يملأ قلبي ضجيجاً محبَّباً ويمسح بقطراته الزرقاء أشد لحظاتي حلكة وسواداً!

حكايتي تشبه ذلك البحر الذي أحلم أن أسير بمحاذاته . . يدي في يده . . نلمس الموج بأقدامنا الظامئة للسير على تراب حُرٍّ، لا تلاحقنا عيون متطفلة ولا خائن عميل ، نركض ونلهو ونأكل وأطفالنا حولنا يملؤون البحر بهجة وضوءاً!

أخرج من هواجسي المتعبة على صوت طفلتي حليمة وهي تشدو بأغنية ولا تعرف أنها تشدو لوالدها . .

علِّي السبّابة وردد يا محمد . . .

والكتايب مقدامة . . قرآن وسيف . .!!

في كل ليلة أضيف سرّاً جديداً فوق رأسي . . وأفتح خزانة أسراري القديمة ، عندما أضيف سرّاً جديداً ينفتح سر قديم فأستعيد التفاصيل كاملة وأحزن مجدداً

أمسح الغبار عن سلاح (بلال) زوجي الأول ، حياتي معه هي التي هيأتني لأكون زوجة القائد العام لرجل فلسطين وحارسها (فبلال) كان ممن شارك في تصنيع العبوات والصواريخ الأولى . . كنتُ أنام وسلاح بلال وعتاده مخبأ تحت (جك سريري) وكأني لا أطمئن في نومي إلا وأنا أتوسد سلاحه وأشاركه عشقه الأزلي!

نزلت دموعي تلك الدموع التي غارت منذ زمن في زواريب الذاكرة وأنا أمسك بكتاب من كتبه التي كان يدرس فيها بالجامعة ، بلال من شجعني أن أحصل على الثانوية العامة ، فقد تزوجني في

سن صغيرة ، ووعدني أن يدعمني لأكمل دراستي بالجامعة . . وفعلاً حصلت على الثانوية العامة ، وبعد ظهور النتائج أخذني إلى السوق واشترى لي ولأطفالنا ملابس جديدة وكان يصر عليّ ويقول :

ـ إذا نفسك في إشي قولي

ها أنا أدخل الجامعة وأمسك كتبه وأدرس تخصصه نفسه ، أشم رائحة أنفاسه وورده الجاف داخل الصفحات . . أتتبع خطى أصابعه وخربشات قلمه في كل كتبه ودفاتره!

أغلق الخزانة وأنا أتمتم :

الحب والموت توأمان تشكلا من البويضة نفسها . يشبهان بعضهما في الوجع والمفاجأة والارتعاش والهزيمة!

أنظر إلى أطفالي من زوجي الأول (بكر وبيان وبنان) وقد جهز لهم (يوسفي) غرفة خاصة بهم ، كل له سريره وخزانته . فلبكر مثل عمر ولِبَنان وبيان مثل ابنتيه حليمة وسارة .

جعل يوسفي مصروفاً خاصاً بهم ، لا يميز بينهم أبداً ، مصروف حليمة وسارة مثل بيان وبنان وكذلك عمر وبكر ، يرسل لهم الهدايا والألعاب ، وإذا علم بمرض أحدهم أرسل مباشرة من يأخذه إلى الطبيب واشترى الدواء وأرسله لهم .

***

كم كانت تراودني شهوة الكلام مع صديقاتي . . ومع ذلك كنت ألتزم الصمت . . أصرخ بصوت مكتوم وأقول :

لستُ قديسة فأنا امرأة من شوق ونار ، امرأة تنظم أسرارها كعقد ماسيّ . . تحتاج في لحظات كثيرة أن ترتديه وتباهي به وتضيء . .

أستعيد نفسي من نفسي . . وأعود لأمارس دوري في الاستماع

لصـديقـة عـمـري التي لـن تتـخـيل من أكـون . . أسـمـعـهـا ، أهدهد وجعها . . أمسح دمعتها . تشكو وتشكو . . تفرد لي سجادة أسرارها فأطويها وأخبئها برفق وحنوّ .

حتى صـديقـتي الوحـيـدة لا أسـتطيع أن أبوح لهـا بأي مـشاعـر أشعر في حضرتها بأني تخليت عن عيني ولساني وأبقيت أذني فقط!!

هيام
أنا والفئران
المغراقة

أمير الموت وملاك الحياة . .!!

هكذا سمَّيتُ يحيى على الورق عندما بدأتُ أكتب بعد منتصف ليلة خروجنا من بيت أم هانىء ووصولنا لبيت عدنان الغول في حي المغراقة جنوب مدينة غزة .

ما الذي فعله بي هذا البيت؟

لماذا الآن؟

لماذا أحسست في هذا البيت برغبة قوية في الكتابة لم أعهدها في نفسي سابقاً؟

في هذا البيت تبينت رائحة الموت بوضوح ؛ عندما سمعتُ صوت انفجار ليس بالبعيد عن المكان . . خمنت أن الانفجار أحد إبداعات يحيى وتجاربه . . لو أن للموت رائحة لكان بعطر يحيى ورفاقه

كان يحيى يكره الموت الباهت ، ويشتهي موتاً بقدر ظمئه للمجد والنصر والتحرير ، كان يحب أن يختار وقت موته ومكانه وتفاصيله ، وكم كان يستوقفه الموت بلا كفن وبلا قبر أيضاً!

كان يقول لي دوماً :

ـ ما أجمل أن يكون الموت اختياراً . . أختاره كفطوري ، كفنجان

قهوتي ، أوقظه ولا يوقظني ، أشعل جذوته بإرادتي .

نعم . لقد كان يشعل جذوة الموت كل ليلة ، يلامس أطرافه على الدوام ، يدغدغه . فيفرّ حيناً ، ويرشف منه رشفة غير مكتملة حيناً آخر

عندما قلتُ له تسلم إيديك أكيد قنبلة جديدة!

نظر إلي وقلبه يكاد يطير من الفرح وقال :

ـ هذه قنبلة جديدة صنعتها مع عدنان الغول ، لو أُلقيت على دورية يهود لقتلتهم في الحال ولزرعت المسامير في أجسادهم زَرْعاً

كانوا يصنعون المتفجرات من علب البوية أو علب لب البندورة الصغيرة وصواعق ومسامير . مسامير إلى أعلى ومسامير إلى أسفل وأشياء كثيرة لا أفهمها ، لكنها كانت تزرع في نفسي بهجة تنسيني حال البيت الذي أسكنه والوحدة التي أعيش .

في ضوء القمر المتسلل عنوة من النافذة أمشي في أرجاء الغرفة . . أشعر بالاختناق . . فما الذي سأفعله في بيت كهذا ليس فيه من مقومات الحياة شيء لا ماء ولا كهرباء ولا مرحاض .

ما كان يخفف عني وطأة الوضع قبل إيصال الكهرباء على يد يحيى وجلب الماء في تنكات على الكارّة هو وقوع هذا البيت وسط بيارة مليئة بأشجار الليمون والبرتقال ، مما ينسيني حالة البيت .

أخرج صباحاً إلى البيارة . . أستنشق رذاذ رائحة زهر الليمون والبرتقال ، أخلع حذائي وأركض كطفلة بين الأشجار ، أختبىء حيناً فيبحث عني طفلي براء وعندما يجدني يضحك ضحكة أهبُ لها كل عمري .

أقطف أوراق الليمون ، أقرّبها من وجهي ، يتسلل إلى طرف لساني

طعم (الرز بحليب) الذي كانت تصنعه أمي مع ورق الليمون . أتكىء على جذع شجرة أبوح لها بجمر حالي ، أقف فجأة تداعبني نسمات هواء مثقلة برائحة منعشة خفيفة وناعمة ، أنظر حولي في كل الاتجاهات ، ولا أرى أحداً ولا أسمع سوى صوت حفيف الأشجار ، فالمكان خال تماماً ، وبعيد عن العمران ، ومنذ وصولي لم أرَ وجه إنسان!! أفتقد الناس ، يتملكني شعور بالوحشة والغربة

أعود بسرعة إلى البيت . . أتحايل على الانتظار والوحشة أنهمك في عمل الرز بحليب كالذي كانت تصنعه أمي ، لا أتذكر المقادير ، أتذكرها وهي تقف على الموقد تضع كل شيء على البَرَكِة أفعل مثلها بالضبط . . أتذوق طعمه بورق الليمون فتخضر الذكرى وتحاذيني دمعه!

في المساء أبعث بصحون الرز بحليب إلى الشباب على السطح ، وأتكوَّر أنا وبراء في مكان قصي من الغرفة . . أحياناً أتقدم خطوات وأحياناً أتراجع ، حسب موقع الفئران الثلاثة الذين يقاسموننني الغرفة أتأملهم وأبقى شاردة في تحركاتهم وألوانهم ونظراتهم إليّ ، فأران صغيران والكبيرة أظنها أمهما ، الأم لونها رمادي بذيل يتراقص كلما مرت أمامي . أما الصغيران فأحدهما بُنيّ والآخر رماديٌّ كأمه ، اعتدت على وجودهم معي في الغرفة ، وتحول الخوف الذي في داخلي إلى أجواء من المرح ، خاصة عندما كنتُ أشعر بأنهم أصحاب البيت الأصليون ، وأنني من أفسدت عليهم متعة التجوال بنظراتي وحركاتي المستفزة .

ينسيني صوت عدنان الغول ويحيى وتلاميذهم فوق السطح سوء المكان . فقد كانوا يقضون جُلَّ الليل يحرسون المكان ويُعدّون وصفات

نظرية لقنابل يدوية تمهيداً لصناعتها وتفجيرها فيما بعد . كانوا يستخدمون كل شيء لصناعة المتفجرات حتى إنني كنت أتخيل أنهم سيصنعون المتفجرات من الرمل . فلم تكن قلة الإمكانات وشحّها وتواطؤ القريب والغريب ليردعهم عن حب فلسطين .

أسمع عدنان الغول يقول ليحيى بإصرار غير عادي :

ـ على المقاومة أن تمتلك السلاح وأن تصنعه محلياً . . لن نتسول قطعة سلاح من هنا وأخرى من هناك .

يالله كم كنت أعشق لحن هذه الكلمات . . أحسها يمكن أن تُغنى وأن يطرب لها كل حر

كل لقاء من هذه اللقاءات كان كفيلاً ليهدهدني ، فأغفو على نغماتهم وإيقاعهم ، أشعر باليقين ينسلُّ من حروفهم ، إن كنتُ مكدَّرة أصفو ، وإن شربتُ كأسي بمرارة تكون أهازيجهم شهدي .

أحببتهم . . وتمنيت أن أظل العمر كله بجانبهم . . لأنهم يسترون عُري العرب كلهم ، يربأون أن يصافحوا ويهادنوا ويقبّلوا فاه الخطيئة . . معهم دفنتُ شعور الشيخوخة . . شيخوخة المشاعر التي يحملها البعض تجاه الوطن!

***

لم يأتِ عدنان الغول إلى سطح منزلنا لثلاث ليال متواصلة ، قلقتُ عليه ، وأخذت الوساوس تنتابني . . هل أصيب بمكروه؟

هل اكتُشف أمره؟

سألتُ يحيى طمأنني ولم يكد يكمل جملته إلا وصاحب الحقيبة يطل . . هيبته أدهشتني وعقدت لساني ، كم كانت تروقني تلك

الحقيبة (لاحقاً عرفتُ أن فيها ساعة فحص وأسلاكاً وأدوات كهربائية) يحتاجها للكشف على المتفجرات .

كان لتلك الليالي جلال في نفسي ؛ كنتُ أنتظرهم على أحرّ من الجمر ؛ لأنه لم يسبق لي أن كنتُ يوماً على تماس مباشر مع المقاومين ، التقيتُ بالكثيرين منهم لكن لم يحدث أن اتسعت علي الأرض بما ضاقت كما حدث عندما صرتُ بجوارهم .

كانت تلك الليالي أسعد ليالي حياتي . . يخططون . . ويصنعون . . وينفِّذون ويهزجون وأنا أسمعهم وأحضر لهم أطباق الرز بحليب التي يطلبونها لمذاقها الطيب ، حتى إن أحدهم طلب طريقة التحضير ليعطيها لأمه . . فقلت ليحيى . . قل لهم إنها تصنعها على البَرَكة بدون مقادير!!

أشعر أن الليل كان لهم أباً حانياً يظللهم ويحميهم ، أتخيل الأشجار تشتعل لتقاتل معهم ، حتى فئراني كانت تنصت وتهدأ عندما يبدؤون الحديث ، أقسم إنني معهم لم أعد أشعر بوحشة ولا غصة كالتي كانت تحدث لي بسبب أو بدون سبب!

لم أكن أحاول التقاط ذبذبات أصواتهم ، فقد كانت تصلني دونما جهد ؛ فجلوسي في ذلك المكان القصي من الغرفة البعيد عن الفئران نسبياً ، وصمت المكان المتواطىء معهم سهَّل على أذني التقاط حنينهم وحريقهم!

أسمعهم يلملمون جراحهم فيغدو نزفهم سلاحاً ودمعهم سلاسل تكبل الغاصب .

كان لكل شيء معهم طعم مختلف ، لم أعد أحسب حساباً للأشياء ولا للأصوات التي تباغتني فجأة من هنا وهناك ، لم أحسب

الأيام ولا الليالي ، ولم يهمني ضيق المكان ووحشته . . لقد كان يقيني بهم يزداد مع كل لقاء فوق السطح .

بالقرب منهم اكتشفتُ أن الطهارة هي أن تتوضأ برمل الوطن!

***

وداد
القمصان الستة

اكتشفت أن الاحتفاظ بأسرار طافحة بالوجع والمرارة لا يساوي شيئاً أمام أن تبتلع صوتك لفرط الألم!

نعم . . قد تبتلع صوتك لفرط الألم! حينها تنصهر روحك وتحترق كلماتك كأغصان جافة أنهكها انتظار المطر ، فتكتشف أن للصمت قدرة على دفق الدماء الساكنة في العروق كثورة ، على إعادة تشكيل الدموع المتحجرة والأنفاس المختنقة بطريقة مدهشة . . يتلاشى أمامها أي صوت مهما كان عالياً

هذا ما حدث مع تلك المرأة الجالسة قرب الشاطىء ، توقفتُ أمامها . . مضى عليها وقت طويل على ما يبدو ولم تتكلم كلمة ولم تصرخ . . هذا الصمت الذي صهرها بحيث أمسكت بقمصان أطفالها الستة المخضّبة بالدماء ، وأخذت تنشر واحداً واحداً على حبل غسيل نصبته قبالة البحر تماماً!!

بعد هذا المشهد لم أعد أرغب بأي شيء . . لم أعد أصبو لأجلس مع يوسفي على شاطىء وهمي يزخر بأنين الأمهات الثكالى ، صرتُ أشمئز من بحر يشرب البؤس بشراهة ، أخذت أعض على شفتي حتى سال منها الدم وأنا لا أشعر ، لقد جرح المشهد حلمي بأن أمشي قرب الشاطىء بصحبتك وتحت جناحك ، شعرت أنني أرتكب حماقة ما ،

عندما رأيتها ذاب القلب وضاع الحرف وأحسستُ أن حلمي ترفٌ أخجل أن أبوح به

وجوه كثيرة تقترب ، تنظر ، تحوقل ، وأخرى تتسمر في مكانها مرتعشة رغم تظاهرها بالثبات ، فلاشات الكاميرات تضيء المكان من حين لآخر

لا أستطيع الاقتراب منها ولا أستطيع الابتعاد عنها . . أقف في منطقة وسط ما بين السيطرة على مشاعري وانفلاتها من جسدي! وما بين دمعة تحمل نار القلب وحرفاً منكسراً

أدرتُ وجهي بعيداً عنها أخفيته بكلتا يدي ، وأحسستُ أن في عيني شلالاً يريد أن يتدفق حتى أرتاح ، لا أريد الاستسلام لذلك الشلال الذي سيجرفني إلى أماكن ومشاعر وصور قد تحول ارتياحي المؤقت إلى موجة عارمة لا أستطيع السيطرة عليها

تعلق كل قميص وبصمتٍ متناه لا يقطعه سوى همسات المارَّة وموجات البحر الذي شرب البؤس على مضض ، تجوس يداها على خطوط الدماء المتعرجة التي تملأ القمصان ، تشم رائحتهم الممتزجة بكعك العيد ، تغفو عنوة فوق رمل الشاطئ الذهبي ، تضيئه بهذه القمصان الستة

كان هذا المشهد أقسى المشاهد التي رأيتها في حياتي . . أم عمياء فقدت بصرها في الحرب ، لم تعرف باستشهاد أطفالها الستة إلا بعد عودتها من رحلة العلاج القاسية بعد ستة أشهر!!

هل كانت تحتضر بصمت؟

لا أدري!!

تصحو من غفوتها فجأة ، أشعر بها تطير فوق رمل الشاطىء ،

تتعانق مع الموج الساكن الهادىء من هول ما يرى . . ثم تعلو وتعلو لتلمع مثل النجوم .

تقف هناك ، ترهف أذنها لسماع أصوات أطفالها الذين كانوا قبل دقائق من قصف بيتهم يتساءلون عن الجنة وبيوتها ولون رملها وهل يشبه لون رمل غزة الذهبي ، عن فراولة الجنة وبرتقالها وهل له نفس مذاق فراولة غزة وبرتقالها؟

تسمعهم يلهون ، يمرحون ، تراهم يمسك بعضهم أيدي بعض ، يحضن بعضهم بعضاً . . ضاقت بهم الأرض . . عرفت أنه لا يتسع ولا يليق بهم سوى السماء .

شدّتها السماء إلى أعلى أكثر وأكثر . . إلى مكان نقيّ وصاف يحتفظ بهم كما هم ، من غير شظايا تخترق أجسادهم ، من غير حروق ولا ندوب ، أجسادهم غضّة نديّة . . متوهّجة . . مازال الصغير يرضع في حجرها ، وزيد وحمزة يكبّرون تكبيرات النصر والتحرير ، أما عاصم فينشد . . غزاوية وما بنقلقش والمذلة ما بنقبلش . . يمشي مشية العسكر ، ويعد إخوته بأن يصبح مقاوماً ويدافع عنهم . . أما إيمان فكانت في حضن والدها ترتل آيات القرآن ، وكل خطيئتها أنها تحلم بوطن على شكل أرجوحة!

شعرتُ بوخز يجتاح جسدي ، يلتف حولي يعصرني ، اعترتني رغبة شديدة بأن أضع أطفالي في حضنها ثم سخرتُ من نفسي ووقفتُ أمام عتبة حزنها بلهاء بكماء!!

تطاير أطفالها أمام عينها . . رأت أحدهم والصاروخ يقسم جسده إلى قسمين ليصبح فتاتاً كحبات القمح على أرض تحترق! فأي اعتذار يليق بامرأة ابيضّت عيناها من الحزن؟

ولأن الألم يستعصي على التفسير والإحاطة . . صمتت وألقت بانكسارها للبحر الذي فاض دماً ، تجلس قبالته كل يوم . . تمد حبلاً إلى الله . . فيزيل وحشتها وينقش على روحها خضرة وبهجة ، مع كل موجة تضرب الشاطئ يتسع قلبها لمعان لم تكن تدركها . توقن بأن الله مع الصابرين . . لم تعد تضع في ذهنها صورة لمعيَّة الله لها . . الله يرسم شكل المعيّة لها . . بالطريقة التي يريد وبالوقت الذي يريد . . ليس عليها إلا أن تكون كما يريد حتى تحظى بوعد الله .

كيف استطاعت أن تنزع القمصان من جبِّ يوسف وتنشرهم على الملأ؟

كانت أمّاً . . ولم تصدق رواية الذئب!! بل صدقت إحساس أمومتها بأنهم أحياء عند ربهم .

تحدِّق في البحر وكأنها تقول :

ــ القذارة هي أن يصدق العالم كله رواية الذئب . . ويكذب مشاعر الأم ورؤياها!!

استمرت في الذهاب يومياً إلى البحر . . تنشر قمصان أولادها الستة . . فهمتُ بوضوح ما كانت ترنو إليه . . هذه القمصان ما هي إلا رمز لآلاف القمصان التي تزداد يوماً بعد يوم حتى تملأ الشاطئ قمصان يشبه بعضها بعضاً . . قمصان صغيرة . . عليها دماء متعرِّجة ذات رائحة يشبه رائحة كعك العيد . . قمصان فُرض عليها قصاص جائر لأنها ارتكبت فعلاً مشيناً . . لقد كانت تحلم أن تكبر وتمحو كل الكوابيس التي تكدر صفو الأرض ، قمصان لا يعرف بعضها بعضاً لا يجمعها سوى الرعب والأمهات المكلومات وموجات بحر يحمل صورهم ليخلدها

هيام
حي التفاح

الأماكن بعضها يضيّق عليك الخناق ، يقتلك عندما تخطو عليه ، وبعضها يحتفظ بلون مَنْ مَرَّ عليه ورائحته وخُطاه .

يتضاعف ألمنا وتخور قوانا عندما نشتم تلك الرائحة ، ونستعيد ذلك اللون ، ويلمع ذلك الوجه الملائكي القسمات الذي سكن في دهاليز الذاكرة ، حينها نستسلم لشعور غريب وخلاّب في آن واحد ، شعور يليق بالوجع ويعلو على الغياب .

هل سأجرؤ على استحضار من غاب؟ هكذا تساءلت عندما وصلنا حيّ التفاح شمال مدينة غزة . .!!

حيّ التفاح بالنسبة لي يعني (زكريا الشوربجي)

أنظر إلى المكان . . أشعر برغبة في المشي على كل ذرَّة من ذراته ، أمشي بخطوات ثابتة غير مرتجَّة كتلك التي مشاها زكريا ، وكأني أريد أن أرى خطوات قدم الشهيد التي ما زالت تثعب دماً ، وكأني أريد أن ألمح الخارق في انعكاس صورته على رمل غزة!

حيّ التفاح . . أتراه ما زال يعشق طلتك؟

أما زال يجمع أشلاءك بعد أن تقطَّعت لتأتيه سعياً؟

الأماكن التي مرَّ فيها شهيد تبقى شاغرة وكأنها له وحده ، تحمل

مرارة وغصّة خانقة ، ولكنها تتجمل استعداداً لشهيد آخر!! كم كنتُ مرعوبة أن يكون الشهيد القادم هو يحيى!!

هذه الأماكن لها شعاع قوي وآسر . . يجعلك تشعر بالهدوء والسكون والغبطة ، ففي اللحظة التي سرتُ فيها على رمل حيٍّ التفاح عوّضتُ ساعات من الشك والخوف مما سيكون عليه حالي وأنا أنتقل لمكان جديد . .

تغيير الأماكن كان يسبب لي ارتعاشاً وإرهاقاً كبيراً . . . الانتقال من مكان إلى آخر برهان كبير أن الخطر يكبر والحذر يجب أن يكون على مقاسه .

لكن شعور الترقب والخوف زال بمجرد أن خطوت أولى خطواتي وشممت رائحة ذلك الشهيد . . انفتحت على المكان بكل حواسي ولم يعد هناك ما أخافه!

قلتُ ليحيى :

ـ مازال المكان متيقظاً صحواً من دماء زكريا . . أشعر بأن غبشاً خفيفاً يظلّل حكاية استشهاده . . أذكر مقاطع رأيتها على التلفاز وكأنها كلمات متقاطعة . . مشاهد غير مكتملة في رأسي ، لكن مازلت أذكر تاريخ استشهاده بوضوح ٩٣/٤/٢٠

فقال لي يحيى وهو يبتسم :

-الشهداء لا يقبلون نصف الذكرى!!

أمعنتُ بكلمات يحيى . . شعرتُ بالخجل فيما راح يحيى يكمل :

زكريا الشوربجي يا هيام رجل صامت عرفه الناس فقط يوم استشهاده عندما واجه جيشاً كاملاً ، تفتّح كوردة ساعة موته . حاصره

أكثر من ألف جندي إسرائيلي . . هذا عدا الطائرات التي كانت تحلق بكثافة في سماء غزة والوحدات الخاصة . . وساعة مداهمته لم يكن يملك سوى مسدسه الشخصي!!

كان يقفز من بيت إلى آخر رافضاً الاستسلام . . حتى إن امرأة طاعنة في السن عرضت عليه أن تدخله بيتها وتعطيه ملابس نسائية حتى يتنكر بها لكنه قال لها بنبرة عتاب :

- يا حجة حرام عليك!! بيني وبين الجنة خطوة وحدة . . هاللبس بيبعدني عنها!!

أستمع إلى يحيى . . كلماته كانت مثقلة بما وراء الحروف والأحداث . . يحكي كلمة واحدة . . فتنفتح أمامي أبوابٌ لحكايا نائمة . . يحكي كلمة وأكمل من عندي!!

تأمَّلتُ كثيراً في قصة استشهاد زكريا الشوربجي ووصلتُ إلى نتيجة مفادها أن دور الشهيد لا يقتصر على منح الوطن الحياة . . بل يتعدى ذلك ليخلق حكايا جديدة لشهداء جدد . . ومن يدري من هو الشهيد القادم . . قلتُ ذلك وأنا أرمق يحيى بعيني الدامعة

يكمل يحيى وكأنه لم يسمع شيئاً :

ظل زكريا يتنقل ويقفز من بيت لآخر . . يرفض الاستسلام حتى أنه دُمِّر قرابة ١٩ منزلاً لاصطياده لكنهم لم ينجحوا ، بل استطاع زكريا ولمدة سبع عشرة ساعة متواصلة أن يرهقهم وأن يستخدم كل حنكته ليقتل رجل المخابرات الصهيوني (أبو عدنان) وثلاثة ضباط آخرين .

وفي اللحظات الأخيرة ، وعندما أحس باقتراب أجله ، ربط قدميه بحبل حتى لا تراوده نفسه بالهرب ، وظل يطلق النيران حتى نفد ما في جعبته إلى أن استشهد .

في هذه اللحظة تقاطعت نظراتي مع نظرات يحيى . . وكأننا فهمنا ما يدور داخل كل منا

شعرتُ في هذه اللحظة بأن مهمتي شاقة ، وقد لا أحسن أداءها ، شعرت أنني لابد أن أحسن الاستعداد لأن العبء سيكون ثقيلاً!

كنت أستمع إليه بنشوة . . لا أريده أن يُنهي كلامه . . أحسستُ بأنه القادم الذي يتجمَّل له حي التفاح وغزة بأكملها . . عندما أوصلني خيالي إلى هنا قمت فوراً وبدأتُ أرتِّب حاجياتنا وأخذ يحيى يساعدني في تنظيف المنزل وترتيب حقائبنا

وقفنا على شرفة المنزل وكان المنزل لعائلة البطش . . كان المنزل محاطاً بأشجار النخيل والليمون والبرتقال والكلمنتينا والبوملي . . كنتُ أعشق البوملي وأحب منظره . . نزل يحيى وقطف لي حبات منها . .

مكتبة الرمحي أحمد

كنتُ أشعر برغبة في أن أخبئ يحيى تحت مسامات جلدي . . أن أسرقه إلى الأبد . . أن يكون لي وحدي . . شعرتُ برغبة عارمة بسرقة عمري القادم ووضعه بين يديه ، كنتُ أرتعش ويخفق قلبي بشدة وأنا أردد بصمت :

متى سينتهي هذا الوجع؟

وأعود لألوم نفسي وأخبئ ما راودني من أفكار ، وأتخيَّل لو أن يحيى سمع ما يجول في خاطري فلن يغفر لي جنوني واستسلامي لضعفي

في كل بيت لم نكن نجلس أكثر من أسبوع . . أشعر بأني كرة . . كل يوم أتدحرج في حيٍّ من أحياء غزة . . فأكبر بحكايا ومشاهد أكتبها ولا أدري إن كانت سترى النور . . أكتبها كي أتحرر من مخاوفي

وارتجافي . . أكتب لعل الكلمات تأخذني بين يديها وتبعد عني شبح الفقد . . أكتب كي أتخفف من حملي قليلاً وكي لا تبقى الحكايا مستلقية بكسل بعد مرور الزمن .

في هذه اللحظة فكرتُ جدياً في كتابة كل ما مرَّ بي وبيحيى وبدأتُ أكتشف أن سماكة الكرة تزداد على غير ما كنت أتوقع

***

مرَّ أكثر من أسبوع قبل أن يخبرنا أبو صهيب الذي نسكن منزله بأن صديقاً له رأى رؤيا وجاء يخبره بها . . لقد رأى حيٌّ التفاح يُهدم على رأس يحيى!!

صاحب الرؤيا لا يعرف يحيى أصلاً ولا يعرف بوجوده في غزة .

جاء يحيى ليخبرني بالرؤيا . . عندها تسمرتُ في مكاني أحسستُ أني هشة وأي كلمة أخرى ستكسرني ، انتابتني رعشة امرأة تتحسر على عشقها الذي يتسرب من بين أصابعها . . ها أنا أرى الحقيقة التي حاولت مراراً تجاهلها . . أراها في ضوء أقوى .

نظرتُ إلى يحيى وكأني أتوسل إليه أن لا يكمل ولا يخرج ولا ولا . . . مسحتُ على بطني الذي بدأ ينبض بطفلي القادم . . ثم ابتسمتُ ابتسامة امرأة ملأها الحب باليقين .

تبسَّم يحيى متعجباً من ابتسامتي المفاجئة وقال :

ـ تبتسمين!!

استدرتُ نحوه وقلتُ له :

-إلّي الله كاتبه بدو يصير

توقفنا عن الكلام على صوت نشيد سعد العرابيد وهو يصعد الدرج . . لا أذكر كلمات الأنشودة . أذكر لحنها وهذا المقطع المبتور .

يا إمي لا تبكي علينا

لازم نتحمل يا إمي

كنتُ أعرف سعد العرابيد من قبل ، فقد جاء إلى بيتنا في رافات والتقيتُ به في نابلس مع يحيى ، وطبعاً هو الذي رافق يحيى في رحلته إلى غزة عندما دخلا في شاحنة خضار

عند مجيء السلطة الفلسطينية إلى قطاع غزة لم يرق لسعد قلة الأهداف العسكرية للاحتلال . . فقرر أن ينتقل للضفة والتقى بيحيى وشارك في العديد من العمليات العسكرية من إطلاق نار وزرع عبوات ناسفة ، وأشرف مباشرة على أسر الجندي (نخشون فاكسمان) وهو الذي اصطحب حقيبتين من المتفجرات من غزة إلى الضفة حتى ينفذ بهما الاستشهادي صالح نزال عملية تل أبيب في ساحة ديزنغوف التي قُتل فيها ما يزيد على ٢٣ صهيونياً وجرح العشرات .

كان لمجيء سعد العرابيد إلى بيتنا وصوت إنشاده . . أثر كبير في تغيير مزاجي . . لقد منحني حضوره حصانة ضد الوجع وضد الفقد المرتقب . . حتى وإن كان لفترة قصيرة!!

وداد
الحرباء

ليست الأماكن فقط التي تضيق الخناق وتقتل . . إن البشر يفعلون الشيء ذاته!!

هل هناك علاقة بين خيانة البشر وخيانة الأماكن؟

كيف للخضرة في القلب أن تتحول إلى جدب؟

كيف للموسيقى أن تتحول إلى لحن موت؟

ليتني أفهم كيف لعاشق الأرض أن يصير زنديقاً ويشرب دمها ويتاجر بوردها؟

إنها النهاية يا وداد . . إنها الحقيقة المُرّة!!

أي صراع حوّل اليقين إلى شك؟

أنظر إليها بذهول . . ما الذي تقوله؟ ماذا أتى بها في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

بدأ عقلي يُشرِّق ويغرِّب!! ماذا حصل؟ ظلت متسمِّرة أمام الباب . . أمسكتُ بيدها . . أدخلتها وأجلستها مقابلي بالضبط . .

ـ أهلاً . . أهلاً يا أميرة .

حكت وحكت . . تفاصيل كثيرة . . كانت تتلعثم في بعض الأحيان ، وأحياناً أخرى تسترسل وكأني لستُ أمامها . . حكت لي عن أخيها . . عن تلوُّنه كالحرباء . . كل ما أذكره الآن أنها قالت :

تعرفينه يا وداد ، الصبي الأشقر النحيل الذي لم يبلغ العشرين ، المحبوب الذي يفيض حيوية وتعلو وجهه ابتسامة عذبة رائقة . . ودائمة

هززتُ رأسي . . نعم . . كل من يراه يحبه فوراً . . ماذا حدث له؟

ـ سقط يا وداد . . سقط وضاع وانتهى الأمر . . تشوهت الملامح الجميلة وصارت سمعته في الوحل . .!!

صمت قاس خيَّم على الأجواء وهي تحاول أن تتذكر كلماته الأخيرة :

ـ إننا نعيش كالجرذان . . أعمارنا قصيرة كسيجارة . . تلقى ويدوسها المارة بأقدامهم . . ولا يُلقي أحد لنا بالاً . . افتحي عينيك . . يكفي هراء . . عليك أن تفتحي عينيك مرة بعد أخرى لتري الحقيقة التي لا يراها أولئك المقاومون الذين لا همَّ لهم سوى الموت . . وكلام لا يُطعم خبزاً ولا يقي من البرد .

انظري إلى يدي المتقرحة من شدة البرد وإلى هذه الدماء التي تسيل منها . . أليس حراماً أن ألبس هذه الثياب ولا أملك ثمن رسوم الجامعة وأنا الأول على القطاع كله . . الأول على القطاع ولا يملك ثمن وجبة طعام . .!!

تنهدت أميرة . . استجمعت قواها . . لكن بدت نظراتها أكثر وضوحاً وحزناً :

- قبضوا عليه بتهمة التخابر مع «إسرائيل»!!

ـ لا أصدق ما أسمع . قولي وغيري . . هل أنتِ متأكدة مما تقولين . .

أنظر إليها نظرة استجداء وكأني أريدها أن تغير قولها . . لكنها تسترسل :

ـ عندما تعرضت منطقتنا إلى آخر اجتياح صهيوني اعتُقل هو ومجموعة من شباب الحي الصغار ، وأخذوهم ليقابلوا ضابطاً إسرائيلياً رافق القوات الخاصة المقتحمة للمنطقة . قبل أن يأخذ كل واحد منهم على حدة عارضاً عليهم التعاون مع الجيش الإسرائيلي . حينها وافق على طلبهم فقط من أجل أن يطلقوا سراحه ، أعطوه رقماً خاصاً كي يتصل بهم وقرر أن يأخذه ولا يتصل بهم مهما كانت الظروف والأحوال . . لكنهم أعادوا الاتصال به مراراً كان يحاول التملص والإفلات منهم ، لكنه وجد نفسه في النهاية يركض إليهم . . يحمل طموحه بأن يكمل دراسته الجامعية والعليا . . أن يصبح باحثاً مخترعاً ويحصل على أرقى المناصب العلمية ويُشار له بالبنان .

ركض نحوهم بكل ما أوتي من قوة ، وجد نفسه بينهم ، حتى إنه لم يعد يسمع صوتي ولاصوت أمي وأبي

لم تعد تعنيه مفردات البطولة ، الحرية ، الأرض ، المقاومة . . هذه المفردات أضحت بالنسبة له كلمات يرددها اللسان . . كلمات لن تصبح شيئاً ما لم يروِّها نبض القلب . .

الكلمة التي يرويها نبض القلب لم يعرفها ، والدمع الذي يرفده والدم لم يذرفه يوماً . . الوطن أضحى عكازة له حتى يصل لطموحه الذي قتله

كان يقفز فرحاً عندما عرف طلب ضابط المخابرات ، فهو لم يطلب منه أن يراقب أيّاً من قادة التنظيمات الفلسطينية ، لم يطلب منه أن ينضم إلى إحدى هذه التنظيمات والأجنحة العسكرية . . لقد طلب الضابط طلباً مريحاً . . يريح النفس من عناء الضمير . . من التردد والخجل للسير في هذا الطريق . .

طلب منه أن يقوم بعمل استطلاعات للرأي في الشارع الفلسطيني . . وفعلاً قام بعمل عدة استطلاعات مثل آراء الشارع الفلسطيني في الفصائل الفلسطينية أو غيرها من القضايا اليومية التي تشغل الشارع الفلسطيني . . في بعض الأحيان كانوا يطلبون منه تزويدهم بالمنشورات التي تصدرها الفصائل وعمل تحليل لها . . وهذه المنشورات بالطبع سهل الحصول عليها

بدأ يشعر بذاته وبكيانه المفقود . .لأنه يعشق العمل ويحب البحث . . وما جعله يسير في الطريق دون الالتفات للوراء أن تعاونه معهم ليس له علاقة بالاغتيالات . .

كنتُ في أحيان كثيرة أدخل عليه الغرفة فجأة فأشعر بأن الخوف ينغل في روحه . . يمص دمه ولا يتركه يهدأ أو ينام . . أصبح نحيلاً أكثر ، وكانت برودة يديه تزداد رغم الملابس السميكة التي كان يلبسها . . كنتُ أشعر أنه قد تغير . . لكنني لم أكن أتوقع أن يصل به الأمر إلى التلوُّن كالحرباء

كثيراً ما كنتُ أنام ممددة على الكنبة في الصالة المقابلة لغرفته فأصحو على صوته الفزع . . أغفو قليلاً ثم أصحو على صوته وقد أرهقته الكوابيس .

عمل معهم مدة طويلة دون أن يشك أحد . . حتى أنا أخته . . وأقرب الناس إلى قلبه لم يخطر على بالي أن يصل الأمر إلى هذا الحد . . كنتُ أتناقش معه يومياً . . أحسستُ تغيراً في أفكاره . .

كان يقول :

ـ المقاومة قشرة بالية . . أنهكها الجوع والعطش . . أنهكها الحصار . . ستزول عند أول ضربة سكين .

تدور الأرض وأنا أسمع كلماته ، تخيفني هذه الكلمات فأقول :

ـ المقاومة الأولى هي مقاومة نفسك التي تعمل ضدك وضد الوطن ، نفسك هي عدوك الأول . . المقاومة الحقة أن تقاوم ضعفك وجبنك وعجزك وشهوتك . . أنتَ عاجز عن مقاومة أي شيء لذلك تصف المقاومة بالقشرة!!

إما أن يكون مفهوم المقاومة شاملاً وإما ستسقط وتتدحرج كما أراك الآن!! المقاومة كلٌّ لا يتجزأ . . تبدأ بنفسك وتنتهي بعدوك!

أنت تريد وطناً بلا ثمن!! تريد حرية جاهزة ومفصَّلة على مقاس شهوتك ورغبتك .

الحر هو الذي يصنع حريته . . يصوغها بشروطه

لكنه تظاهر بأنه لا يسمعني . . جلس في زاوية الغرفة يتصفح بعض المنشورات والصحف . . بدا متوتراً وهو يقول :

ـ إنت شاطرة بالكلام!

ـ وأنتَ تقف موقف المتفرِّج من هذه الأرض الذي تغلي بالدم .

للحظة أحسستُ بالفزع وأنا أحكي معه لا أدري لماذا؟

أدار وجهه بعيداً . . وتظاهر بالقراءة مجدداً . بينما أكملتُ :

ـ أشعر أحياناً أنك كالأميبيا . . بلا مفاصل . . ولأنك كذلك . سهلٌ أن يُشكلك من يشاء كيف ما يشاء!! أخاف منك . . وأخاف عليك .

لم أفلح في حديثي معه كثيراً كنا ننتهي من حيث بدأنا

فيما بعد تبين أنهم يُجهزونه من أجل الإشراف على مركز أبحاث تابع للمخابرات الإسرائيلية ، يكون مقرُّه غزة ، حيث كان من المفترض

أن يسافر خارج القطاع ، وأن يلتقي بمندوب لإحدى المؤسسات العالمية ، والتي ستمنح له اعتماداً يمكنه من فتح فرع لمؤسسته في غزة . . حتى يعمل أمام الجميع بوجه علني

لكن القدر وضع نهاية لهذا الطموح القاتل . . فقد فوجئ باستدعائه من قبل جهاز الأمن الداخلي . . ليكتشف أنه كان مراقباً منذ فترة طويلة

ترتجف أميرة . . وهي تخاطبني :

ـ ستكونين معي يا وداد . . ستقفين جانبي . . لن تتخلي عني بسبب أخي!

شعرت بقشعريرة تجتاح جسدي . . أمسكتُ يدها كانت وحيدة . . متناثرة . . ممزقة ، لكنها كانت قوية وغاضبة . . كانت تعشق الوطن وتكره الاحتلال . . تمتمت بخجل

ـ ما كان للاحتلال أن يطعننا إلا بسكيننا!!

قلتُ في سري . . :

ليست بعض الأماكن هي التي تقتل وتخنق . . بل بعض البشر أسوأ!!

هيام
(الغنم على الخروب)

مبكراً أدرك يحيى أن الحق والوطن كلمتان مغريتان يتهافت على قولهما الساسة وأصحاب المناصب الرفيعة والأحزاب والمنظمات والفصائل والعاطفيون والعقلانيون والمقهورون والخاسرون وكل من يريد أن يصل!!

لكن الكلمتين لم تكونا لتغرّا يحيى . . فالحق والوطن ليسا مجرد فكرة ينطق بهما وتصفق له الجماهير ، لذلك كان يحيى عصياً على الكلام . . هادئاً . . صامتاً أغلب وقته لأنه كان دوماً يعمل لتحويل الفكرة إلى عمل وحركة .

لم يكن يحيى يهوى تشريح الوضع الفلسطيني ، ولا فذلكة السياسيين ولا توزيع الأخطاء على الفصائل والأحزاب والأفراد . . كان على قناعة بأن التشريح والتنظير لا يقودان بمعزل عن الثورة!

ما الفرق بين ما فعله السياسيون وما فعله يحيى؟

يحيى لم يفاوض ، وإن كان يملك دهاء عمرو!! كان يراهن على سيف القعقاع . وكان على يقين بأنه لن ينفعه سيف كسرى وقيصر

لم ينجرّ لوهم الخطب ومراثي القصائد . . لم يستمع لوسوسة أبي لهب . . لقد حلّ الشيفرة بذكاء وأيقن أن لا طريق ثالثاً . إما طريق الزبير . . وإما دنيا الحجاج . . !

في أول زواجي كان هذا الأمر يحتاج إلى شرح!!

كثيراً ما كان يعود يحيى إلى البيت وقد تلونت ملابسه باللون الأسود . . أو بالوحل والطين فأسأله : فيرد :

ـ خربت السيارة واضطررت لإصلاحها

فأُمسك بيده وأقبلها وأقول له

ـ لكنها رائحة الكبريت . .

يصمت ولا يرد .

أسيل حوله كجدول رقراق أنهكه المسير . . أرجوه أن يخبرني . . فيرجوني برفق ألا أسأله عن شيء!!

أدركتُ حينها أنني سأكون مختلفة عن باقي المتزوجات سيكون لحياتي خطوات عابقة بعطر مختلف ، طعم الصباح سيكون مختلفاً ، قهوتي ، سفري ، حضوري وغيابي ، وحتى ابتسامتي ودموعي!

بدأت أتلمس أن يحيى يعمل عملاً ذا شأن إلى أن جاء اليوم الذي أكدَّ لي هذا الحدْس .

جاء اليهود إلى بيتنا في رافات . . قلبوا البيت رأساً على عقب مثل المجانين ، كلما دخلوا غرفة أو لمسوا قطعة أثاث يصرخون بهستيريا ويقولون :

مفخخة!! هنا أدركتُ حجم الدور الذي يقوم به يحيى وحجم الرعب الذي صنعه يحيى في قلوب اليهود ، لن أنسى ذلك اليوم الذي اجتمعنا فيه بيحيى وقال له والده :

ـ ماذا عليك لو سجنت؟

قال له

ـ إذا سُجنت لن تروا وجهي أبداً!!

اليهود لا يريدون حياتي وكان هذا صحيحاً وسأكتشفه لاحقاً!!

جاء يحيى بقربي ونظر إلي وقال :

ـ أظنك تستطيعين أن تقرئي يحيى وتسمعي صمته وتكتبي حروفه . . هذه حياتي التي اخترت ولن أتراجع أبداً . . ولك الخيار . . إما أن تبقي معي وتتحملي تبعات قرارك وإما .!!

بكيت وبكيت كما لم أبكِ في حياتي ، أخذت أتأمل وحدتي القادمة ، ذلك الغياب الذي ينتظرني ، الخوف الذي ينخر جسدي كإزميل ليصل إلى الشريان .

دمعي هذه المرة صاخب ومليء بالضجيج على غير عادته!! والأنثى داخلي ترى نفسها أوّل العاشقات وآخرهنّ . . فأنا مازلتُ عروساً صغيرة ، وطفلي رضيع على يدي وأحلامي غضة ، وأغنياتي تشتعل على شفاهي

كل ذلك سيتمزق من عاشق مقاوم ... مطارد وبكلمة واحدة مني وهي نعم!!

تلك النَّعم كم ستكون حارقة؟ التفكير المتبصر العقلاني قد يجعلني أتراجع!!

ما بين النَّعم واللا . . تُغيِّر الجداول مجراها

لا أدري كيف صارت رائحة الكبريت المنبعثة من ملابس يحيى . . في هذه اللحظة عطراً أشتهيه!!

وثيابه المتسخة بالطين والوحل . . أضحت تزيده جمالاً ووضوحاً وقرباً إلى قلبي . . كان لعينيه أجنحة تأخذني إلى عوالم سحرية لم أكن أحلم أن أدخلها

بكيت ويحيى ينظر إليَّ بحزن ، يحيطني بحنان غامر ثم فجأة مسحتُ دموعي وأطفأتُ لهبي وابتسمت وقفزت من قوس النار بسلام وقلتُ له :

ـ وأنا معك لآخر نفس!

حينها ابتسم وضمني إليه وشعرتُ نفسي كلؤلؤة في محارة .

***

فارس الكتمان والحذر

ظل صامتاً حتى انفجرت القنبلة التي عرَّفت الناس به ، وكان ذلك في سنة ١٩٩٣ ، ومنذ ذلك الوقت أصبح مطارداً من قبل اليهود وأعوانهم .

صباح تلك الليلة التي عاهدتُ يحيى أن أقف خلفه . . أتى الجيش . . أخرجونا خارج المنزل وتحت المطر (الدنيا كب من عند الرب) ، أبقونا في العراء لساعات . . أنا وطفلي الرضيع وخالتي أم يحيى . .

قال لي الضابط يومها :

-بتعرفي شو رح أعمل بيحيى بس أمسكه؟ رح أربطه بسيارتي وأدور فيه كل الشوارع في تل أبيب ثم أقطعه لقطع قطع وأعطي كل يهودي قطعة . .

قلت له

-مش مهم . . روحه في الجنة!

أخذ يصرخ بهستيريا ويقول :

ـ إنتِ مجنونة ، مخك صغير! ما في مخ أصلاً!

ثم يذهب لخالتي أم يحيى ويقول لها الكلام نفسه فتقول له :

ـ روحوا دوروا عليه بمكان ثاني ، يعني معقول يحيى يجي يتخبى

في بيتـه!! أمـا عـقلكم صـغـيـر . . مـا في عـقل أصـلاً!! وتنظر إلي وتضحك . . فأضحك!

لا زلتُ أتخيله يمشي جنباً إلى جنب معي . . أتخيل نفسي معه في المغـارة . البـرد يقص المسـمـار ونحن نفـتـرش الأرض ونلتـحف السماء . . بصحبته يصبح للجمال المألوف طعم آخر . فالسماء تبدو عـازفـة على وتر المطر والأرض ترقص طرباً وتهـتـز وتربو نلبس (أفرهولات عسكرية) تم تهريبها لنا وأحياناً نلبس بدلات بلاستيكية تمكننا من النوم في أي مكان في هذه الأجواء الباردة . . . أتخيل نفسي مع يحـيى وأنا ألبس هذه البـدلات . . لا أعـرف في هذه اللحظة إن كـانت هذه المشـاهد حـقـيـقـية أم أنها مجرد حلم!! . . أحـيـاناً تتحول الحـقـائق التي يحكيـهـا لي يحـيى إلى أحـلام ترافـقني في صـحـوي ومنامي! وأحـيـاناً تتـحول أحـلامي إلى حـقـائق . تنبض بالحـيـاة . . فيحيى هو من ينفخ فيها!!

أسترسل في أحلامي . . وعيناي شاردتان باتجاه بوصلة واحدة . تجاه المغارة التي يقيم فيها يحيى . . في هذه اللحظة تتعالى الأصوات من سماعات المسجد . . حينها شعرتُ بالدفء فجأة . لأننا سننطلق باتجاه بلدنا نحزم متاعنا على عجل قبل أن يأتي رعاة الغنم كعادتهم . . طائرات الهيلوكبتر تطوق السماء . . نستدير لنلقي نظرة وُدٍّ على المغارة التي احتضنتنا . . نحمل فرحتنا القادمة على ظهورنا ونتجه نحو جبل الكروم لندخل بلدنا من غربها . . وفجأة سمعنا عبارة معترضة من المؤذن (الغنم على الخروب) فهمنا الرسالة فوراً وقفلنا عائدين . . فقد فهمنا أن هناك خطراً يتربص بنا ومرارة الخيبة في حلوقنا!!

طلعت الشمس ونحن نراقب (بالدربيل) الجيش الذي كان يوجد

في كل مكان تقريباً . . على الجبال . . وعلى مداخل البلدة . . ويعتلي المباني العالية . . قررنا مغادرة المغارة إلى قرية (دير بلوط) لنصل إلى الكهف الذي يتوسط الارتفاعات الصخرية ، وجدنا مجموعة كبيرة من المقاومين الذين لم يغادروا المكان منذ يومين وأكثر ، فجيش الاحتلال يطوّق المكان منذ أيام ولم يبق من الطعام شيء . . . لكنها الأرض التي تنتظرنا بفارغ الصبر ، فكلما اقتربنا من المقاومة أكثر اقتربت منا الأرض أكثر ، وكلما اقتربت الأرض منا أكثر كلما رشفنا من الحياة رشفة إضافية ، التقطنا بعض أوراق اللوف من بين الصخور المجاورة وطبخنا وجبة هي الأشهى منذ شهور

بعد يومين وصل مرسال أن الجيش قد انسحب من بلدنا تسللنا إلى أحد البيوت ، أكلنا وشربنا وغيرنا ثيابنا . . استرحنا قليلاً ثم اتجهنا نحو الشمال وصلنا (مُغر عامر) وقضينا ليلتنا هناك . . وفي الصباح مررنا بعين الماء وشربنا منها . . إلى خلّة الرهبان . . ومنطقة البِرْكة . . وصلنا بلدنا وكانت قد قلبت رأساً على عقب . . وتم تفتيش معظم البيوت . . . قررنا أن ندخل بلدنا . . بعد خمسة شهور مطاردة . . اشتقنا لشجرة التين والليمونة

في مرآة عيني يحيى رأيت الحمام يتجمع ليلتقط حبات القمح التي كان ينثرها

كنا نمتلىء . . بقصائد البلد . . كل شيء ولو كان عادياً كان بالنسبة لنا قصيدة مغنّاة . . رغيف خبز من يد أمهاتنا . . فنجان قهوة على الفرندة .

الشمالية . . زجاجة حليب من جارتنا ، سلة تين من الأخرى ، وكعكة بيتية اشتهتها لنا خالة أو عمة

اعترض الشباب على زيارتنا تلك لما فيها من مخاطرة وتوقع لوجود القوات الخاصة في البلد وكثافة العيون المترقبة ، ولكن شوقنا لأهلنا قد تمادى . . قررنا أن لا نتراجع . . وتحت إصرارنا ورغبتنا الشديدة وافق الشباب . . توزعوا على ثلاثة خطوط سير مقترحة . . وعلى أسطح المنازل المحيطة ، وتحرك عدد من المطاردين بشكل علني في المنطقة الغربية للبلد حتى تلحق بهم العيون ويشتتوا الانتباه علينا ، وعندما غادر الجميع وصدرت الإشارة بالتحرك ، مشيت بجانبه أقرأ المعوذات . . وحمل على رأسه (جونة) سلة طعام .

دق يحيى الباب . . مازلتُ أتابع خطواته . . الصوت القادم صوت والده . . صوت رزين هادىء جاد . .

دخلنا . . أقفلنا الباب خلفنا . . ونزع يحيى الغطاء عن رأسه تبسم عمي أبو يحيى قليلاً . . ياهلا . . ياهلا . . وكان نادراً ما يبتسم . . قبَّل يده . . وظل لسانه يرضى عليه ويدعو له . . عمَّ الفرح المكان بحضور الوالدة التي كانت تعد خبز الطابون . . ملأ يحيى الصحن بزيت الزيتون وطلب حبة بندورة وجلس تحت شجرة التين وقال لأمه :

أريد أن آكل كما يأكل الناس . . بهدوء واستمتاع

قضى يحيى يوماً طبيعياً . . طلع إلى السطح . . نثر القمح للحمام . . هدل كما لم يهدل قبل ذلك . . مشى في زقاق القرية . . تنسم عطر هوائها كما لم يتنسَّمه من قبل . . ثم طار على جناح غير مرئي . . عاد للمغارة . . وتركني هذه المرة وحدي . . أرقب حكاياه الأخرى بشوق ولهفة!!

وعندما ضاقت الأرض على يحيى توجه إلى غزة والتقى

(بيوسف) وصارا يعملان معاً ، يحيى كان منهمكاً في تطوير الأحزمة الناسفة لاستخدامها في العمليات الاستشهادية ، أما (يوسف)فكان يسعى لتطوير نماذج لعمليات أسر وقتل جنود الاحتلال .

مستلقية في فراشي وبجانبي طفلي . . تحضن يدي اليمنى طفلي الأول ويدي اليسرى تمسح على بطني

لا أدري لماذا تسمع أذني صوت (يوسف) الآن . . كنتُ أسمع صوته دوماً ولا أراه . . أراه من الخلف دوماً كان يأتي كثيراً على مكان وجودنا في غزة . . ليالي عدة كانا معاً . . أسمع همهماتهم . . وضحكاتهم . . فأغفو وأنام . . أنام وأنا أشعر بطمأنينة وسكينة . . وفي مرات كثيرة كان ينام عندنا في البيت نفسه ، وفي إحدى المرات صحوت ولم أسمع صوت (يوسف) ولا صوت يحيى . . قلتُ في نفسي أكيد خرجا دون أن أشعر بهما . . تركت طفلي نائماً وأخذت أتسحَّب على أطراف أصابعي لأرتب الغرفة التي كانوا ينامون فيها . . لكنني قبل أن أدخل وقفتُ عند الباب لحظة . . نظرتُ في أرجاء الغرفة ، وجدت أشياء كثيرة مغطاة بالحرامات والشراشف . . كنتُ أعرف أنهم يتركون الأسلحة ويغطونها بالشراشف . . اختلط علي الأمر . . هل أجسادهم النحيلة التي تحت الشراشف؟ أم هي أسلحتهم الحبيبة التي كانوا يدللونها ويعتنون بها كأطفالهم .

توقفتُ قليلاً قبل أن أدخل . وبقيتُ أراقب تنفسهم . . قلت لنفسي :

إذا تنفسوا بيكونوا تحت الغطاء ، وإذا لم أسمع صوت تنفسهم بيكونوا خرجوا . . وما هي إلا لحظات وإذ بي أسمع وألحظ صوت تنفسهم . . ضحكت في سرّي وعدت أدراجي وأخذت أتخيل نفسي

لو أنني مشيت عليهم وهم نائمون . . أو رفعتُ الغطاء عنهم . . وعندما اسيقظ يحيى أخبرته أنني كنت سأمشي عليهم

في تلك اللحظة أخذ يحيى يضحك من كل قلبه كيف لا وقد كتب قصائد جديدة للأرض . . تختلف قافيتها عن أي قافية

العائدون إلى بيوتهم
وداد

أشد أيام الحرب وجعاً هي الأيام التي تلي الحرب!! الأيام التي يبدأ الناس فيها بحساب الخسارات وملمة الأوجاع ورتق القلوب التي أصبحت كخرقة ممزقة لفرط الألم!

حينها يكبر الفزع وتصبح الفجيعة أشد وضوحاً ، وتتلمس الثمن المدفوع بيدك وترى العقاب الجماعي بعينك . . تتجمد الدماء السائلة لتنحت قصصاً لا تنسى ، وكأن ظلال الحرب أصعب بكثير من الحرب نفسها!

أتساءل . . ما الذي جعلني أمسك القلم في منتصف الليل؟

هل هي حكايا هيام؟ نعم إنها هيام من شجعتني على الكتابة ففي أحيان كثيرة أشعر أنني أكتب لها!

هل ستقرأ يوماً ما كتبت كما أقرأ مذكراتها الآن؟

أشعر بأن ذلك سيكون قريباً . . فحكايتنا أنا وهيام ملامحها الدم وصوتها الرصاص . والكتابة ليست حرفتنا . . أحياناً أشعر بأني أريد أن أضيف بعض النهايات والكلمات على ما كتبت هيام . . نهايات تشبهني وتشبهها ، تورطني في الكتابة وتقول ما أودُّ قوله في أحيان كثيرة ، أحياناً أشعر أنها تقف خلفي وتقرأ ما أكتب حرفاً بحرف!!

عندما أقرأ ما كتبت هيام تتحفز مشاعري وتحضر قوية . . أصبح

قادرة على فهم سرِّ الراحة بعد الدموع!

الغمامة تنقشع والمشاعر المُرَّة اللاذعة يخفُّ طعمها بواسطة الدموع نجتاز الوداع واللحظة الأولى واللحظة الأخيرة لأي لقاء!!

أتوغل في قراءة ما كتبت وأقول لنفسي كيف لي أن أضاهيها لكنني أعرف أن حكايتي معها كجناحي طائر لا يكتمل الطيران إلا بوجود الجناحين!!

في أجواء الحرب . . والعشق والكلمات المتشابكة والأسرار التي لم يعرفها أحد إلى الآن . . تتوثق علاقتي بهيام على الورق . إنها علاقة من نوع آخر . .

أحكي لها وتحكي لي . . فنلتصق كحروف في كلمة واحدة . . كانت حروفنا تذوب وتمتزج . . لتلتقي سائلة . شفافة على ورق أبيض . . . .!

يحدث أحياناً أن يكون الوطن على هيئة رجل عاشق!!

عبارة كتبتها هيام . . من وحي هيامها بيحيى . . وها أنا أرددها من وحي ودادي ليوسفي!

عندما تقرئين ما كتبت ستستغربين لأني قفزت قفزات زمنية كثيرة . . قفزت عن مجازر كثيرة ، عن قبور لا تعرف أصحابها ، عن عائلات لم يبق منها أحد!!

أعجز عن التحدث عن ثلاث حروب متوالية . لم نكن نلتقط أنفاسنا حتى تباغتنا حرب أخرى . .!!

هل سأتحدث لك عن بحر غزة الذي غرق في الظمأ؟

أم عن سمائها التي أصبحت مرآة عكست المذابح . . والبوارج وهي تقصف والطائرات والمدفعيات والعبوات والحرائق والدخان . . باختصار ،

السماء لم تعد سماء . . إنها تعكس جحيم الأرض المشتعلة!

ليتني أعرف كيف أُتمُّ الحكاية؟

أتخيلك يا هيام تقفين فوق رأسي . . تقولين لي امشي . . باتجاه العائدين إلى بيوتهم . . بعدما أُعلن عن الهدنة لمدة ٢٤ ساعة

أقترب من أحدهم . . لا أتذكر اسمه كل ما أذكره الآن يا هيام هو الحكاية مجردة من الأسماء والصفات . . حكايته بعدما عاد إلى منزله . . في اليوم الرابع عشر للحرب . . صحيح . . لا أعرف أين يقع منزله لكنني أعرف أنه قريب من الأسلاك الحدودية . .

عند هذه الكلمة . . الأسلاك الحدودية ـ يجذبني الرجل إلى قصته

ـ تركتُ باب بيتي مغلقاً لأتفاجأ بعد عودتي أن الباب مفتوح ، وأن المنزل مخردق بالنيران ، ولشدة خوف جنود الاحتلال قاموا بكسر الباب ، ثم أطلقوا النار في كل أرجاء المنزل ليتأكدوا من عدم وجود رجال المقاومة

واستغربت وهو يكمل حكاية الفناجين . . فناجين القهوة . .

ـ قاموا بربط فناجين القهوة من الأذن الخاصة بالفنجان . . ثم في حبل طويل علقوا الفناجين من الممر القريب للغرفة التي يسكنون فيها . . إلى الباب الخارجي حتى تهتز الفناجين في لحظة دخول المقاومين عليهم فجأة!!

جحظت عيناي . . واكتفيتُ بالصمت حتى ألحق بركب حكايته :

ـ المنزل كان مدمَّراً . . حفروا البلاط ليتأكدوا من عدم وجود أنفاق أسفله!! زجاجات الخمر ، علب السردين الفارغة ، أكياس المكسرات

كانت كلها ملقاة في أرجاء المنزل . .

أفتح خزائن الملابس لأجدها مليئة بحفاظات الجنود التي كانوا يلبسونها خلال تأدية جنونهم وقد امتلأت بالبول والبراز

أما البراز فقد وجدته على سريري . . في غرفة نومي وما بين السرير والخزانة وما بين السرير والمرايا . . أعتقد أنهم فعلوا ذلك خوفاً من أن تكون الحمّامات ملغمة!

لكنني لم أفهم لماذا تركوا كتالوجات كاملة يشرحون فيها لجنودهم مدى الصواريخ التي يحملونها لاصطياد الأفراد عن قرب . . وبعض الصناديق الصغيرة للرصاص الذي أطلقته الدبابات والكثير من المعلبات المغلقة .

مكتبة الرمحي أحمد

بصق الرجل جانباً قبل أن يكمل :

هؤلاء المرتزقة حظهم أنهم جاؤوا في زمن يفتح ذراعيه للخونة والعملاء!!

ينظر حوله وهو يتأمل جدران بيته ، ثم يقول بلهجة كلها حسرة :

جلستُ على حافة الممر أتأمل جدران بيتي وأواصل قراءة أسمائهم التي كتبوها على جدران منزلي الداخلية

أصعد إلى السطح لأتفقد الدجاجات . . وجدتهم قد قاموا بإغراقها داخل خزانات المياه!

خرجتُ . . أعطيتُ ظهري للبيت وكنتُ على يقين بأن رجال المقاومة أطلقوا عليهم قذائف الآر بي جي ؛ لأن هناك فتحات وثغرات في الجدران الخارجية

أدير ظهري يا هيام . . لكن قلمي ما زال ينظر صوب الحكاية ليكتبها في يوم ما!!

وداد
البحر الريّان

صرخت بفرح :

سأرحل بعد يومين يا وداد!!

ـ إلى أين؟

ـ إلى أي مكان يبعدني عن جحيم غزة وحصار غزة وقذائف غزة!

أنظر إليها بإشفاق . . فتكمل :

- لا أريد هذا الوطن الذي صارت خريطته زنزانة كبيرة ، حدودها الجوع والقهر والكوابيس الليلية والقنابل الفسفورية ، لقد كرهت هذا الوطن المليء بأصحاب العاهات والأمهات المكلومات!

قلت لها :

ـ أحياناً كثيرة لا نملك سوى العيون التي في وجوهنا . . فلا نرى إلا ما يراد لنا أن نراه!!

بازدراء نظرت إليَّ وقالت :

ـ احكي يا ست وداد . . شو العيون الي بتشوفي فيها إلّي أنا ما بشوفوا؟

بحنوّ قلت :

ـ هل الرحيل سيجعلك أقل حزناً؟

ـ على الأقل سيجعلني أشعر بإنسانيتي وبكرامتي . . سأشعر أنني بشر!

أمامي فرصة للهجرة من الجحيم . . سأعيد تشكيل حياتي وحياة طفلي الذي يسكن في أحشائي وينتظره الموت كما آلاف الأطفال في غزة ، لماذا لا أقتنص الفرصة؟

لقد سئمت المقاومة التي لم تجلب لنا سوى مزيد من الدمار والشهداء وأصحاب الأطراف الصناعية ، مقاومة تصفق وحدها لن تعيد الوطن!

ـ المقاومة يا صديقتي تعني الكرامة . . الحرية الموعودة . . والوطن الجميل الذي ينتظرنا

-ماذا لو وضعنا أيدينا في أيديهم واقتسمنا الدار وانتهى كل هذا العناء؟

ـ أيديهم ملطخة بدمائنا!!

ـ من قال ذلك؟ ففي اليهود من يرفض أن يطلق النار صوبنا!

ـ وفي اليهود من يبلغ عمره ١٧ سنة تجب عليه خدمة إلزامية في جيش الاحتلال لثلاث سنوات ، وكل من يريد الخروج من الخدمة فعليه أن يخدم كجندي احتياط ثلاثة أشهر كل سنة

من سلب أرضي وعاث فساداً فيها . . من هجَّر أهلي وقتل أطفالي فيده ملطخة بدمائي . . نحن ندافع عن أنفسنا . . فليخرجوا من أرضنا ولا يعنينا بعد ذلك أي يهودي في أي مكان .

ثم عن أي مصافحة وسلام تتحدثين! عن سلام بين اللص وصاحب الدار؟ سلام بين من يصفع ومن يتلقى الصفعات؟ سلام المنحني والمنتصب؟ السلام يا صديقتي لا يصنعه سوى السلاح .

ـ لذلك كله . . لأجل هذه الدوّامة سأرحل

ـ إنهم لا يتركونك حتى وإن رحلت . . إنهم يتاجرون بكم في

عرض البحر لتواجهوا الموت بلون جديد . هذا مخطط (الترانسفير) والتهجير الإسرائيلي

ـ وليكن!

بدت مُصرّة على ما عزمت عليه . . تركتها . . وعدتُ إلى بيتي وأمسكتُ قلمي وقلتُ في نفسي :

ـ لماذا علي أن أعيش تفاصيل رحلة الموت التي ستقوم بها؟ هذه الرحلة ليست لعبة ، وإن كانت لعبة فهي لعبة خطرة ومميتة . . أنا أعرف ماذا يعني أن تصعد في قارب متهالك لتصل إلى أروبا . . الجنة الموعودة!

ما المطلوب مني؟ كيف سأقنعها بعدم الرحيل؟ هل أنقل لها مشاعري وأنا أتخيل البحر يلتهمها؟

أم أنقل مشاعرها ووجهة نظرها وآلامها وأتركها لتواجه مصيرها؟

أم أكتب ما قرأته قديماً من مقالات وشهادات ودراسات حول (الحراقة) الذين يهاجرون من المغرب العربي باتجاه أسبانيا فيصبحون طعاماً لحيتان البشر قبل البحر؟

هل أتنبأ بما سيحدث؟

هل أكتب ظل مشاعري وأفكاري؟

كتبت وكتبت . . لا أدري ماذا كتبت . . كل ما أعرفه أني وضعت ما كتبته في ظرف رسائل أعطيتها إياه وركضت ودموعي تخنقني .

قصتي
قصتها المتخيلة
(البحر الريّان)

غير أنها حين تكوَّر بطنها ، وأحست بالنبض يُشعل عينيها سهداً وخاصرتها جمراً ، أوجست في نفسها خيفةً وهمست في رقة وحنوٍّ وهي تطوف بيدها حول بطنها :

ـ ويحك أيها الصغير ، ما الذي ينتظرك؟

ورجعت بها الذكرى إلى الوراء حيث مشهد أبيه لا يفارق خيالها . وباتت ليلتها وليس فوق الأرض امرأة أشقى منها!

عليها أن تسافر ، تعرف ذلك ، فليس هناك خيار آخر ، فقد أعيتها مشاهد الموت ورائحة الدم والبارود ، أعيتها أصوات الأطفال وهم يصرخون من كوابيس الحلم والحقيقة ، أعياها عدم النوم ، فمنذ ابتدأت الحرب لم تستطع النوم! لكن عليها أن توفر الكثير من النقود لمافيات التهريب ، فالجنين الذي ينبض داخلها ينتظره فرعون الجوع والقهر والعري ، إن هي لم تسرع في جمع المبلغ المطلوب قبل أن يحين موعد الولادة ، تريده أن يصرخ صرخته الأولى هناك ، تريد لطفلها أن يُحنِّك بحلاوة أروبا عوضاً عن صَبّار بلادها!!

كل شيء جاهز ، الواحدة صباحاً موعد الانطلاق عبر النفق ، ومن ثم الوصول إلى الإسكندرية للإبحار من هناك إلى أوروبا!! سيتم كل

شيء ليلاً . السرية والسرعة هما أهم بنود خطة الهرب . قبل أن تصعد القارب تلفتت وراءها لترى من الوطن ما يحثها على الإسراع للرحيل ترى بيتها الذي تتوزع فيه القدور هنا وهناك لتتلقى قطرات المطر المتسللة عنوة من شقوق السقف . . ترى رغيف الخبز الذي تتجاذبه الأصابع الصغيرة الرقيقة لتبقى اللقمة الأخيرة دون أن تمتد لها الأصابع إيثاراً للبقية!! ولاصقاً على فم الجوع حتى لا يصدر أنيناً يزعج العرب !

ما زال مشهد زوجة أخيها وهي ملقاة على عتبة الدار ممزقة أشلاء يسكن ذاكرتها منذ الحرب الأولى على القطاع ، ما زال أنين ابن أخيها الذي بترت ساقه وأصبح معاقاً يطاردها . . وجثة أبيها تزيد اشتعالاً كلما حاولت إطفاءها لأن الاحتلال استخدم الفسفور الأبيض المحرم دولياً!!

ركضت نحو القارب الذي يشبه حذاءً بالياً قديماً ، قارب لا يتسع لأكثر من ستة أشخاص تتكدس فيه أجساد ثلاثين وأكثر!! تفوح منهم رائحة الأحلام ممتزجة برائحة البرتقال والليمون والأهازيج الفلسطينية عن الغربة والشهادة والوطن!!

كل له حكاية لكنه صامت مترقب ، أفكارهم وهواجسهم تدور في فلك واحد وهو : الوطن هو المكان الذي يسمح لك بالتنفس والحركة!!

اتخذت مكانها في القارب ، أسبلت جفنيها فتراءى لها طيف زوجها الحبيب المشتعل قهراً وظلماً . . جُلُّ ذنبه الركض خلف بريق اللقمة الحلال ، (مرمر) هذا اسم الشهرة لحبيبها الحنون . . ينادونه بمرمر لأنه شديد الصلابة والصفاء . . يركض ليل نهار ليؤمن الدواء لأمه المريضة وبعض الدريهمات لأخواته الصغيرات اليتيمات ولعروسه الشابة المليحة ، شاب جامعي ، طموح ، عاطل عن العمل يفترش

الرصيف بائعاً للخضار ، تأتي قذيفة صهيونية لتمزق عربته وأطرافه!!

يصرخ فينكسر الصوت ، يتساءل بمرارة هل تحوّل إلى مسخ!! وتحاصره الأسئلة المزعجة . . هل ما ينقصه هو رغيف الخبز فعلاً؟ أم ما ينقصه هو الصراخ؟؟ أين تكمن الحكمة في البقاء جائعاً ، أم في مواجهة الاحتلال؟

تنتشي بطيفه لحظة ثم تصحو على صوته لحظة وداعه لها ، حين أوصاها قائلاً :

ارحلي . . فهذه بلاد لا تتسع لنا . . هذا بحر ظمآن ، ارحلي إلى البحر الريّان وسألحق بك فور حصولي على الأطراف الصناعية التي سترسلينها لي!

***

هاهي إيطاليا تلتمع بغواية ، تتلوى كعصا موسى يسحر الألباب ، هاهي أمنية زوجها قد أوشكت على التحقق ، أربعة عشر كيلو متراً تفصلها عن إيطاليا حيث الحرية وهج لا ينطفئ ، وحيث الإنسان في أحسن تقويم ، والكلمة مخضرّة سامقة لا تدوسها الأقدام ولا تطالها الصفعات .

يخيّل إليها أن إيطاليا تفتح ذراعيها لها حيث الحياة هناك شهد وهناء ، برد وسلام ، سناً وبهاء . هاهي أضواء إيطاليا تخطف الأبصار ، لم يبق إلا القليل وتحضنها ولم يقطع حبل تخيلاتها إلا تململ الصغير في أحشائها يطلق صفارة الوجع إيذاناً عن بدء الوصول . . تنزوي في ركن قصيٍّ من القارب ، تتجمهر النسوة حولها ، يشددن من أزرها ، تهمس له بصوت خاشع ترجوه أن ينتظر حتى يصل الشاطئ ، لكنه أبى إلا أن ينزلق على هذا القارب المهترئ وسط فرحة النسوة ودهشتهن

الممزوجة بالقلق ، يختلط صوت الميلاد بصوت صكٍّ سمعها ، أدركت فيما بعد أنه صوت خفر السواحل الإيطالية الذين سمعت بهم قبل ذلك . إذاً لقد وقعت هي ورفاقها في قبضتهم ، انتفضت مذعورة ، تشعر بقلبها يكاد ينفطر ، يذوب حزناً وكمداً ، لا تريد لطفلها أن يعود هناك ، أخذت تصرخ بصوت مكتوم :

ماذا سيفعلون بي يا ترى وبصغيري؟ يا ترى لو نظرت بظهر الغيب لغيرت قراري؟ لا لن أستسلم لمصيري . . لا أريد لطفلي أن يتحول إلى معاق أو مريض نفسي ، لا أريد أن يتمزق جسده أشلاء!! لا أريده أن يعود إلى هناك ، أمعنت النظر في الصغير وفي بالها قرار أمٍّ موسى لتنقذه من فرعون!!

انثنت على صغيرها ، لفته بخرقة بالية والنساء حولها واجمات ينتظرن قرارها ، ترفعه إلى صدرها تتشبث به معانقة وتضعه بسرعة في التابوت (الصندوق) وتلقيه بسرعة في البحر قبل أن يصل الجنود إليها

تسكب ماء البحر على وجهها لتطفئ صهيل الأمومة المشتعل في صدرها . . تغلق عينيها كي لا تلمح دوران فمه يبحث عن صدرها لتلقمه ، تلجم القلب المحترق كمداً بأن المراضع كثر في إيطاليا

تحاول أن تربط على قلبها ، تحكي له وهي تطيل النظر في الصندوق المبتعد :

- هناك يا صغيري ستلتقطك جواري زوجة فرعون ، سيخرجونك من الصندوق إلى عوالم سحرية آخّاذة ، ستحتضنك زوجة فرعون ، ستربيك كطفلها الأثير ، هناك ستشعر بإنسانيتك ، وحريتك ، هناك ستكبر ولن تبقى كشجرة البونزاي!! فاحتمل يا صغيري ظلمة الصندوق فوراء الظلمة بريق النور .

النسوة حولها يشددن أزرها . . فيما خفر السواحل الإيطالية يواصلون وضع الأغلال ، وصرخات وليدها تشق عتم الليل تختلط بهدير الأمواج الريّانة ، ما زالت تهمس له وتحاكيه ، وما زال يصرخ ملتاعاً ، ثم ما يلبث الصوت أن يضعف ويضعف ثم يتحول إلى أنين متقطع ثم يختفي . . يختفي .

حينها أيقنت أن إيطاليا ليست زوجة فرعون الحنون ، فزوجة فرعون الإيطالية ليست عاقراً وعندها من الأبناء ما يملأ عليها حياتها وأكثر ، زوجة فرعون لم تحمل الرضيع وتضمه إلى صدرها ، لم تتوسل إلى فرعون أن يبقيه عسى أن يكون قرّة عين لها وله ، لم تشعر بحبه يملأ قلبها ، وإلا لحضنته حتى وإن استمر بكاؤه ورفض المراضع

رمته في البحر عسى أن تنقذه وينقذها!!!! تنقذه من فرعون وطنه وينقذها لتدخل القصر الإيطالي لإرضاع صغيرها!!

فيما الأغلال توضع في يدها تمهيداً لإعادتها إلى بلادها ، تشتعل ضحكاً هستيرياً يثير شفقة من حولها ، ها هي إيطاليا تسخر منها فكم تشبه هذه الأغلال نقوش الحناء الهندسية التي لم تنقش على يدها ككل عروس!! تشتعل ضحكاً ؛ لأنها هربت من فرعون الجوع والقهر والعري لتجد فرعون الذل واللوعة والفقد .

هيام
بيت لاهيا

هل الحياة تعني النَّبض فقط؟

في عرفي للحياة تعريف آخر .

الحياة ليست نقيض الموت!! فكم من ميت يلبس قناع الحياة!!

النَّبض شأن كل الكائنات ، أما الحياة فلا . .!! الحياة متشابهة لكل من يحياها . . بألوانها وإيقاعها وأشكالها وأفراحها وأحزانها!! أما الطَّعم والنكهة فلن يشعر بهما إلا من ذاق الدَّهشة وفهم المغزى ، أن تذوق طعم اللقاء المباغت والولادة المباغتة ، أن يمسِّد الحبيب شعر الرأس في غير ميعاد .

الاختلاف في القلب الذي ينبض بها ، قلوبنا هي التي تعطي الحياة شكلاً مختلفاً ونكهة مختلفة!

الحياة أن أُبصر ما لا يبصره الآخرون ، وأن أسمع ما لا يسمعه الآخرون ، أن أتأمل بشيء ظاهره مظلم لكنني أرى النور من ورائه! الحياة أن نعرف أن لله وعداً وأن وعده الحق ، وأرى ذلك بيقين قلبي قبل يقين عيني!

هذه فلسفتي الجديدة التي توصلت إليها بعد زواجي من يحيى أما النَّبض فهو شأن كل الكائنات!

الآن في طريقنا أنا ويحيى إلى منزل آخر من منازل خان يونس . .

الانتقال من بيت إلى آخر يعني أن هناك ثمة مقاوماً مطارداً وثمة أرضاً عطشى . . وثمة خائناً يترصد!

لكن بغير هذه الفوضى في حياتنا وهذا التَّرحال وهذا الالتباس بين الحياة والموت تشيخ طفولة الحب ويخبو جمال الطريق الذي نسير!

ومع أننا بلا عنوان ونشتهي عتبة دائمة ، ورشفة فنجان قهوة تجمعنا ، ودرجات تحفظ خطانا وتُغرم بنا وتحنُّ لنا . . إلا أنني أتلذَّذ بكل هذه الفوضى ؛ لأنها تعني المزيد من الوقت المسروق الذي سأقضيه يصحبة يحيى!

مكتبة الرمحي أحمد

ومع هذه الفوضى العارمة في المشاعر والأفكار . . أخرجني من تأمُّلاتي أحبّة في الشيخ رضوان ، اقترحوا علينا أن نستأجر بيتاً في منطقة المشروع (بيت لاهيا) . . حتى نشعر بالخصوصية!

وفعلاً استأجرنا شقة ولم يكن أحد يعرفنا كان شعوري غريباً جداً . . بيت وجيران ونوافذ وباب خاص بنا . . وطعام أصنعه بنفسي . .!!

في أول يوم سكنّا الشقة دق جرس الباب . . ارتبكت . . أأفتح أم لا؟ ثم قلت أفتح ، وإذ بطفل صغير يقول لي :

ـ ماما وبابا بدهم يجوا يزوروكم .

– أهلا وسهلا . . أهلا وسهلا . . قلتها بارتباك واضح . . مغموس بالفرح . .

ركضت ليحيى :

ـ جيرانا جايين يزورونا ويتعرفوا علينا!! ياويلي!!

ـ شو بدنا نحكي لهم؟ مين إحنا؟ مطاردين متخفين!

المهم اتفقنا أنا ويحيى على إنو إحنا دار أبو أحمد ، ودقوا الباب

بسرعة ولم نكمل اتفاقنا على بقية التفاصيل . . وبسرعة وضعت شرشف على أغراض يحيى وسلاحه . . وكلما اقترب ابنهم من الشرشف أنتفض وأرجف . . وبدأت أنسج قصصاً من الخيال عن أصلنا وفصلنا ومن نكون . وأنا أضحك من داخل قلبي لأنه صار للمطاردين جيران!!

لم نقض في بيت لاهيا إلا يومين فقط ورحلنا فجأة كما سكنّا فجأة!

وندخل منزلاً جديداً . . أضع حقيبتنا جانباً . . أتأمّل السَّقف الإسبستي البسيط وهذا البياض الهادئ والفرشتين واللحافين والتلفاز الذي يقبع في آخر الغرفة ، مثل تلفزيونات أيام زمان الذي يعمل على البطارية ، وحمام بسيط للغاية هو عبارة عن حفرة لقضاء الحاجة!

بعض البيوت تشبهنا ، هكذا أحسست عندما دخلتُ هذا البيت .

هذا البيت مثلي تورَّط في حياكة أسطورة!

مثلي قلبه أبيض يحضن الجبهة السمراء!

مثلي يده ممدودة للفارس المنذور للأرض!

***

الأماكن . .

الأماكن بالنسبة لي أرجوحة . . تحملني إلى مصير مختلف كل مرة . . وكأنها هروب من موت إلى حياة .

هذه الأماكن روَّضتني وجعلتني أتقبل الاقتلاع والشتات المستمر من بيت إلى آخر ، وهكذا هو الفلسطيني أينما ذهب . . محفوف بالغياب والانكسار والاقتلاع!

لكنني في غزة أرى الأمر مختلفاً! في كل اقتلاع يلتمع الوطن الذي

خبأناه في صدورنا أكثر فيغدو الوطن بمعناه الحقيقي واضحاً وقريباً!

كل بيت أنتقل إليه يعني حراسة جديدة للوطن وتعوُّذ من يوم بلا زرع ولا قطاف!

كل بيت يعني خطة جديدة وعملية تهز الكيان ووصية تضاف إلى قاموس المقاومة!

لا شيء حول البيت سوى حفيف الأشجار وصوت يحيى مع أولاد الشيخ أحمد النمر

لم أرَ من نساء البيت سوى كنَّة الشيخ أحمد النمر (أم أحمد) وزوجة الشيخ نمر

بعد دقائق من وصولنا كان العشاء جاهزاً ، وما إن بدأتُ بأول لقمة حتى أحسستُ بوجع في بطني وظهري . . أعرف هذا الوجع . . كذبت نفسي ـ لا ليس وجع طلق ـ وقلت لبراء . . انزل ونادي بابا

جاء يحيى وبدأ يأكل معنا . . أحس بارتباكي وصمتي فسألني :

ـ شو بوجعك؟

ـ قلتُ له ربما طلق ، ربما وجع عابر من كثرة التنقل!! لا أدري!!

كنتُ خائفة جداً من الولادة . . فأين سألد؟ ومتى؟ وكيف سأنتقل للمستشفى؟ وهل سيكون سهلاً أن أنتقل إلى المستشفى؟ ماذا سيحدث لي لو ولدت في هذا المكان؟ فكرة الولادة في مكان كهذا وعند أناس لا أعرفهم كانت مرعبة كل صوت ألم كان ينذُّ مني يختبئ خلفه القلق الشديد والعجز والمجهول

يلتقط يحيى وجعي فيبدو قلقاً متوجساً . أكابر على وجعي أحاول أن أبتلع صوتي فيكون حاداً كسكين يمزّق قناعي ويتركني مزقاً أستدعي كل قوتي ؛ لأنني أعرف مقدار قلق يحيى عليّ . . لقد

كان يخطّط أن نخرج من غزة قبل ولادتي . . وأن يولدني في أفضل مستشفى . . لكنني بعد ساعتين فقط هُزمت وسخر صوتي مني وندّت صرخة كتمتها بكفي . أمضينا ثلث الليل ونحن نتجادل ، حاول أن يذهب لينادي أحداً من أهل البيت ، ولكنني رفضت فأنا لا أعرف منهم أحداً

هذه أول مرة أشمُّ فيها رائحة الغربة والوحدة في غزة! كان يحيى في هذه الليلة مخدتي التي تبللت بالدموع ، وضوئي الوحيد في العتمة ، ومعطفي في هذه الليلة الباردة . . كان عصاي التي أتوكأ عليها كان المطر ينزل بغزارة في الخارج ويد يحيى سرب حمام يأخذني إلى طقس ربيعي مليء بالأمان . . يقرأ علي آيات من القرآن . . أهدأ قليلاً ثم يظللّني الوجع من جديد ، ورغم وجعي فإن وجه يحيى هو ما كان يقلقني! شعرتُ به حصاناً أنهكه الصهيل ، قرأت عينيه الأبويتين اللتين تغليان كمرجل فخفت أكثر وأكثر . .

تمتمت : آخ ما أصعب أن تجعل الألم أخرس . .!

أتخيل الموت قريباً يمشي ببطء مُتَنَاهٍ نحوي ، لا أقوى على صدّه . أشعر أن جسدي يندمج معه دون مقاومة وأخذت أتساءل :

هل هذا هو الموت الحقيقي؟ أم أنه حلم تجري فيه الروح بحرية ودون قيود؟

كان كل شيء حولي بلون الموت ورائحته . . الموت الذي لا يقبل أنصاف الأجساد ولا أنصاف الأرواح . . الموت الذي يتلفّت إلينا في اليوم أكثر من مرة ويتلوّن بعدّة ألوان ، ويقترب تارة ويبتعد أخرى وكأنه يلاعبنا ويمهلنا حتى كأنّنا نعتقد أنه لن يأتي . .! كلا إنه آت وأقرب مما نتخيل . . آت في نبضي المتسارع المتقطّع . . آت بانهياري بين يدي

يحيى . . آت بعينيَّ الذابلتين .

حينها ركض يحيى إلى الطابق السفلي ، وأخذ يصرخ وينادي كل من في البيت ، وما هي إلا دقائق وإذ بحاجة سبعينية . . ظهرها محنيٌّ . . تمشي ببطء شديد متكئة على يد يحيى تظهر أمامي!

عندما رأيتها مادت بي الأرض وتبادلنا نظرات التّعجب أنا ويحيى . . . . أحسستُ أني سأغيب عن الوعي ، وصارت الشكوك تراودني .

ـ هل ستستطيع العجوز أن تولدني؟ يارب لطفك . . يارب لطفك .

اقتربت مني وأخذت تقرأ القرآن عليّ . . أغمضتُ عينيَّ واستسلمتُ لها وقد تبّدل خوفي أمناً!!

سألتني :

-من إمتى بتتوجعي؟

ـ من صلاة العشاء .

-ليش ماناديتو علي؟

-ما كنت أتوقع إنه يكون وجع طلق!

وبدأت تساعدني . . تدعو تارة بأدعية رقيقة تنير القلب ، أشعر بكل حواسها ونبض قلبها وهي تدعو لي وتقرأ القرآن تارة بصوت ملائكي لم أسمع مثله من قبل . . شعرتها دافئة وحانية كأمي شيء ما داخلي جعلني مطمئنّة وهادئة . . حتى إنني صرت أتحدّث معها وأقاوم ما بي من وجع . . سألتها :

ـ من علمك قراءة القرآن وحفظه بهذه الطريقة الجميلة؟

ـ ابني الله يحميه

واسترسلت في الحديث . . فعلمت أنها زوجة شهيد . . استشهد زوجها منذ سنين طويلة . . ربما في عام ٦٧ . . وأنجبت ولدين فقط وهي التي تولّد كل نساء العائلة منذ سنوات طويلة . . استأنستُ بها وراقت روحي . .

الولادة عندها حُبٌّ ودفء وأمومة وذاكرة ممتلئة بالحكايا المسلّية وصلوات . . شعرتُ معها وكأنني ألد في مستشفى خاص بل وأفضل!

ذهب الفزع وابتلت العروق بالسكينة والأمان . . لم أشعر بنفسي مطمئنة إلا معها . . أخذتُ نفساً عميقاً كما همست لي الحاجة وبفضل صلواتها . . منَّ الله عليَّ وأنجبت ابني عبد اللطيف الذي لاحقاً سأسميه يحيى!

صرخة طفلي غرقت في صوت أذان الفجر . . ومددتُ يدي نحوها أسألها ماذا أنجبت فلم تجبني . . نظفت الصغير . . ووضعته جانبي وقالت لي :

ـ الفرح والزعل بيأثر على النفسا . . ديري بالك على حالك .

ونادت على يحيى وبشرته بالصغير

دخل يحيى مسرعاً . قرأت في عينيه فرحاً واضح القسمات وتوهجاً غير محدود . . حمل المولود الغزي الذي ولد على أرض غزة وعلى أرض خان يونس . . قبّلَه وأذَّنَ في أذنه وحنّكه بتمرة ودعا له .

جلس بجانبي وقبّل جبيني كنتُ بين اليقظة والنوم . . قال :

ـ هذا الطفل جاء رغماً عن اليهود الذين اعتقدوا أنهم يُشكلون حياتنا كما يريدون . . فالاحتلال يتدخل في شؤوننا كلها . . في الإنجاب والأعراس والجنازات . . لقد انتصرنا يا هيام . . انتصرنا عليهم وأنجبنا الطفل الثاني!

ورغم ذبول عيني إلا أنني لمحتُ ابتسامة يحيى . . ابتسامة لم أرها من قبل . . وكأنه المولود الأول له

أخذتُ نفساً عميقاً وتراءت لي قصة صديقتي الأسيرة (عائشة) التي أنجبت مولودها الأول وهي مكبلة اليدين

مدهشة هي الذاكرة عندما تشتعل بغتة في زمان ومكان لا نتوقعهما ، يومها بعثتُ لها برسالة قلت فيها :

كل فلسطينية هي هاجر وستلد في وادٍ غير ذي زرع . . لكن زمزم ستتفجر تحت أقدام وليدها

هاهي زمزم تتفجر تحت أقدام طفلي

أغمضتُ عينيَّ . . فتراءت لي القصة كاملة سطراً . . سطراً وكأنني أقرؤها الآن من الورقة أمامي . . . القصة التي بَعَثْتها عائشة من السجن!

(بلا يدٍ تمسح على جبيني ، دون زوج وأمّ وأخت ، وحيدة أستقبل مولودي الأول ، ولكن من سيحاسب الجاني على طفل سأضعه فوق سرير بارد؟

عندما أجاءني المخاض إلى جذع المقصلة قالت يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً!!

مكبّلة اليدين والقدمين وزهر عمري يحاول الانبثاق من رحم خصبٍ حانٍ (الوجع يتسع ويتسع ليضيق عند الشفتين) تزهو السجّانةً بضميرها المفقود ، تمشي على جرحي لتزيده اتساعاً وألماً ، وتقترب مني ، توهمني لوهلة أنها ستفكُّ القيد ، ثم تبتعد بضحكة مجلجلة لتعذبني بالانتظار!

حزينة كنت وأنا أستعدّ للحظة الميلاد ، هل حقاً كنت حزينة؟ لا!! فالفلسطينية تعلمت احتراف البهجة والفرح في أحلك الأوقات .

عرفت أنّ للحزن لوناً آخر وطعماً آخر ، فالحزن يعلّمك ما لا يعلمك إياه الفرح!

اكتشفتُ يومها قدرتي على ترويض المصاعب ، وقررّت في سرّي أن أتماهى مع الأرض الحبلى بالرّفض ، هل كانت مصادفة أن تكون ولادتي متزامنة مع ولادة الرّفض في الخارج؟ أم كان قدراً مكتوباً أن تكون المرأة والأرض وجهين للمقاومة؟

طفلي الآتي يزعجهم ، يفسد عليهم أمنهم ، يقلق نومهم ، طفلي الآتي كابوسهم القادم . ولذلك يلاحقونني حتى وأنا على سرير الولادة ، يمزقون تصريحاً من الصليب الأحمر يسمح لزوجي وأختي بالزيّارة . . كم يلزمهم يا ترى حتى يصبحوا بشراً!

وفي غرفة الولادة كاد الدمع يفرّ فأطبقتُ عليه بقوة ، فغار وبكى القلب . . القيد في معصمي تكسّر ولان خيوطاً حريريّة كلما قلت : يا الله

أضع يدي على بطني ، السجانات الأربع يحطن بي وكأنّهن يقلن :

ـ لتلدي وحدك .

أتلمّس بطني بطمأنينة وحنوّ ، أخاطبه :

ـ ستلتقط خيط الحياة بالتأكيد ، فالزّمن القادم لك فاستعدّ لكي تسرد قصتك!

بتشفّ قالت السجّانة :

ـ سيلتفّ الخيط حول عنقه ويقتله

وبإصرار تحدّى ظلمة الرّحم ناداني من تحتي ألا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليك .

ابتسامة ظفر ارتسمت على وجهي لم تفهمها السجّانة

يتسارع النبض وتتسابق الفراشات الملونة والأحلام المسروقة لاستقبال الأمل والفرحة ، أسحب نفساً عميقاً وأنا أردّد :

ـ هيا ، يا صغيري ، لنستبدل صمتنا دعاءً وصموداً ، الألم يجعل الوقت محتملاً لأنّي به أشتعل قرباً من الله «ورحت أناجي ربي «يا جبّار ، يا رحيم» أنت من وهبني القوة واليقين ، أنت من أضاء قلبي بنور الشمس لأحارب العتمة ، ساعدني ليمطر غيمي» وأعياني الوجع (هل أتحايل عليهن كي يفكّوا قيدي ولو للحظة الميلاد؟) تراجعتُ في اللحظة الأخيرة وقلت لنفسي بحزم :

ـ إنهم أعداؤك يا عائشة ، لا تستجديهم ، إنهم يتربّصون بك وبطفلك ، ضحكاتهم تلسعك وصرختك تمتّعهم!

كم يلزمني يا ترى حتى يورق الوجع؟ نظراتي تتسع وتتسع عرق ، دم ، متمرد يخرج . . ومن دون العالمين كانت لهنّ صرخة ، أفزعتهم ، أدهشتهم ، والخيط التفّ حول أعناقهن .

بملامحه السمراء الناعمة اهتزّت وربت روحي ، وبجرأة صوته لملم أشلائي المثناترة التي كانت تغازل الحياة ، ومنحني أنفةً وفرحاً أنساني الألم ؛ عندما نطق بكلمات عربية مع أنّ كل من حوله يتحدثون العبرية . وبسرعة مسّدت عليه بيد مقيدة ، حوّطته بالمعوّذات .

ـ لن نستسلم ، قلت لكم!

لا مفردات لديهم تسعفهم بالردّ . في لحظة أشعلت أعوادهم الجافة حقداً

***

فحمدت الله . . أننا انتصرنا ، فميلاد طفل فلسطيني هو أكبر صفعة يتلقّاها الاحتلال .

قال لي :

ـ عندما سنذهب إلى الضفة سنسجله .

أغمضتُ عيني برضا . . فقد ولد طفلي على أرض غزة . . في بيت الشيخ نمر . . شيخ شيوخ غزة المعروفين بالصلاح والدين .

وصارت الحاجة تطلع عندي كل يوم . . تطمئن علي . . تطعمني بيدها . . تُحمّم الصغير ، وفي نهاية الأسبوع الأول احتفلوا به وعملوا له (أسبوع) مثل أهل مصر

أتوا بسطل ماء تفوح منه رائحة عطور زكية لم أشمَّ مثلها في حياتي . . أخذوا الصغير وغطّسوه في الماء المعطر . . يغطسونه وينشدون أناشيد جميلة لا أتذكّر منها شيئاً ، لكنني أتذكر فرحي وانبهاري والشموع تضيء كل أركان الغرفة . . امتلأت الغرفة بصغار العائلة الذين يحملون النقبوط . . جمعوا النقوط ووضعوه في لفة صغيرة ووضعوها تحت رأس الصغير .

جاء يحيى إلى هذا البيت ثلاث مرات . . في المرة الأخيرة كانت يوم الخميس . . أوصاني بأن أختن الصغير يوم الجمعة

ذهبت بصحبة أبناء الشيخ نمر إلى طبيب يعرفونه . . ختن الطبيب صغيري وهو لا يعرف من أكون! لكنهم قالوا له إنها زوجة مطارد . . عندها رفض أن يأخذ أجراً على الختان ، وبدلاً من ذلك قام ونقَّط الصغير

عندما سمع براء بكاء أخيه أخذ يبكي ، وقال للطبيب راح أحكي لبابا عنك وأخليه يطخك!!

هيام
العليَّة

احذر الاقتراب ، الذاكرة سريعة الاشتعال

ليس هذا فحسب . . فمهما كبرت الأحداث وتزاحمت فللذاكرة قدرة على الاحتواء والالتهام . لها قدرة على الاستدعاء تفوق سرعة الضوء بمرات . . فلا تحتاج إلا لثوان لتتداعى أكبر الأحداث . . فتقف منتصبة . . متدفقة . . نابضة

- آخ يا هيام . . الضفة والله غير !

يضيء وجه يحيى عندما يذكر الضفة ، تتكور الدموع داخل محجر عينيه كطفل يخشى أن يترك حضن أمه

يحكي . . وعندما يبدأ بالحكاية . . أقف على حافتها وأقفز داخلها . . وأمارس دوري الذي أحب في التجوال داخل أروقتها

يحيي حكاية بحد ذاته . . وكل مطارد هو حكاية لا تتكرر . .

يحكي يحيى مطولاً عما حدث معه ذات مطاردة :

لاحظنا أن ترتيب الفراش قد تغيّر . . وأن رائحة مداهمة تقترب من المكان . قررنا عندها تغيير مكان النوم . . وكثيراً ما كنا نفعل ذلك معتمدين على المعلومة حيناً وعلى الحدس أحياناً أخرى .

لم يمض سوى يومين على وجودنا داخل (تعميرة المغارة) كنا نغيّر أماكننا كل أسبوع تقريباً . . لكن هذه المرة الأمر مختلف . .

هذه المرة قـــرّرنا أن ننام داخل بلدة (الزاوية) في مكان مطلٍّ ومشرف (منطقة الهدد) بالقرب من المسجد الكبير والسوق التجاري والمركز التاريخي للبلد .

هناك تتربع عليّة مهجورة . ليس فيها شبابيك ولا أبواب ويسكن الحمام طاقاتها . الطابق الثاني ليس له درج . تمّ تأمين سلم من قبل أحد الشباب وتأمين الفراش اللازم .

نجلس كل ليلة في العليَّة . . وأحياناً وعندما تهدأ العيون نتجول في الزقاق ، نشتم رائحة التراب للشتوة الأولى . . نلمح وجه البلد الحقيقي الصافي ، ثم نعود للعليَّة ، نرفع السُّلم الملقى على الأرض ، ندخل العليَّة ، ثم نسحبه إلى الأعلى وننام ، وقبل طلوع الشمس نكون قد غادرنا المكان .

سكننا في العليَّة وسط البلد أتاح لنا أن نملأ كؤوسنا بما يروي ظمأ الروح للأرض وتفاصيل الحياة التي نفتقدها

بقينا في العليَّة ما يقارب الأسبوع ، وفي اليوم السابع وكعادتنا كان لابد أن نغير المكان تحسباً لأي ترصد لحركاتنا من هنا أو هناك .

جهزنا طعامنا . . بما يكفينا لسبعة أيام (فرايك بالزيت ، رصيص ، كامر) وحزمنا الأفرهولات للنوم واتجهنا غرباً لنصل إلى جبل المساطيح .

كانت الساعة العاشرة ليلاً ، هناك تحت شجرة الزيتون حيث الصخر (الحشان)- تجويف صخري يحمينا من البرد والمطر- لبسنا أفرهول النوم ووضعنا المخدَّة تحت الرأس ، والتي غالباً ما تكون حذاء أو علبة ماء . فتحنا الراديو لنستمع للأخبار ، غلبني النوم ، ولم أستيقظ إلا الساعة الثانية ليلاً . أيقظني صديقي نذير الذي لم يعرف طعم النوم ؛ لأنه يشعر بثقل شديد ودوار في أذنه ورأسه .

حينها بدأ صوت يتعالى باتجاهنا . . خطوات أقدام منتظمة ، أنفاس محمومة ، الأرض تهتز وترتعش . . تركنا كل شيء على حاله واتجهنا نحو الغرب . . نركض من جبل إلى جبل ، حتى وصلنا إلى (الجبل الأزرق) وعندما رمى النهار بعصاه . . نظرت إلى صديقي المتعب لأكتشف أنه كان نائماً على (بيت نمل) وذلك من آثار النمل العالق بثيابه وشعره!

بحثنا عن الماء في المكان ، وجدنا بئراً قريب ، غسلنا وجوهنا ورؤوسنا وتوضأنا وصلينا ، وانطلقنا إلى جبل (السحايل) لنصل إلى منطقة البِرْكة . . وجدنا بقية الشباب المطارد ، فأخبرناهم أن الجيش يحاصر المساطيح منذ منتصف الليلة الفائتة ، لنكتشف منهم . . أن الحصار كان من قطيع غنم فرّ من حظيرته بعدما وجد الباب مفتوحاً وأن صاحب القطيع يبحث عنه ، وقد ظن أنه سُرق . أرسلنا أحد الشباب ليبلغوا صاحب القطيع بأن أغنامه في منطقة (المساطيح)

عدنا إلى البلد . . متخفيين ، ومررنا باتجاه منطقة (الهدد) حيث العليَّة ، لاحظنا جموعاً كبيرة من الناس تتجمهر . . الناس في هرج ومرج ، تريثنا قليلاً حتى تخفَّ الحركة ، لكن لاحظنا أن الأعداد تزيد ، والناس مازالت تتدفق ، حينها أيقنا بأن الأمر ليس طبيعياً . . وأن هناك سراً في الموضوع ! اقتربنا أكثر ، مع أن الاقتراب فيه مخاطرة كبيرة . لنرى أن العليَّة قد وقعت وتهدمت . . نظرتُ إلى صديقي ولم أنبس ببنت شفة من هول المفاجأة . .

تبسّم صديقي نذير وزقزق كعصفور نجا من شبك :

- إلنا عمُر يا أبو شريك!

الولادة
وداد

تلك الليلة وعلى سريري وبعدما أنهيت قراءة ما كتبت هيام . . أخذت أعيد كلماتها عشرات المرات في رأسي . . دبَّ الوجع في أرجاء جسدي المنهك . . حدَّقت طويلاً في كلماتها مرعوبة من وجه الشبه بيني وبينها . . مرعوبة من الليالي المتشابهة والعشق المتشابه والولادة المتشابهة!

بلا إسراء من قلب إلى قلب ، ومعراج إلى سموات الحب السّبع . . يصبح النّبض بلا معنى!!

تحضر أنت وحدك ويغيبون! مع أنّك الغائب الوحيد وكلُّهم حاضرون!

أستدير يميناً ويساراً . . أبحث عنك . . فعودك الذي تعزف عليه يئنُّ وجعاً

لقد وعدتني أن تحضر ولادتي . . أن تكون بجانبي! أعرف جوابك . . أعرف أنك لن تستطيع

لا تقلق . . لقد كنت قريباً مني أكثر مما تتخيل . . أحسستُ بدفء أنفاسك القادمة نحوي . . استسلمتُ لأصابعك تمسِّد على كفّي المتعّرقة المتعبة ، التقطتُ نظرتك الحانية الدافئة الحبلى بالخوف عليَّ والشوق لي . . أنتَ أنيسي في أشد لحظاتي ضعفاً ورعباً .

ودادك تدربت على إيقاعك الأجمل . . على الوحدة والعزلة على الوجع الكبير الذي ينقذ الوطن من الطوفان ويجعله يرسو على الجوديّ!

ما بين طلقة تلتمع كالبرق وأخرى تخترق عظامي . . يلتمع صوتك وأنت تقول لي بمنتهى الرضا والتسليم :

ـ أنا راض بما قدّره الله لنا . . سواء حملت أم لا . . فكله عندي سيّان ، سأفرح كثيراً لو حصل ، وسأفرح أيضاً لو لم يحصل ؛ لأنّه قدر الله

وحينما فاجأتك بخبر حملي ودمعت عيناك . . أحسستُ بفرحك الذي يرتق ثقب عمرك الذي تسرب من بين يديك . . بكيتَ وأزعم أني ذقتُ طعم دمعك ـ لم يكن مالحاً ـ السكريّ الرائق .

وبدأ ربيع عمري من جديد . . وبدأ الخوف والقلق يزداد على حركاتي وسكناتي وتنقلاتي . . تحرص على الاطمئنان عليَّ في اليوم عدة مرات . . تبعث خلسة من يطمئن علي ، وعندما نلتقي تحرص أن تطعمني بيدك . . أن تجلب لي ما أشتهي وأكثر . . لقد كان حملي شاقاً ومتعباً ، وكنتَ رغم غصَّة بعدك عني تضيئني . . تعبرني كحلم لذيذ . . كنتَ سندي وعكازي .

أفتح عيني أكزُّ على أسناني لأصحو على طلقة تمزقني من جديد . . في هذه اللحظة تستيقظ صديقتي جميلة بوجهها الأصفر الشاحب وهي تحكي لي تجربة ولادتها المُرَّة . . تجربة الولادة تحت القصف ، فأمعن في ألمي فيتطامن ويصغر

ألوذ بصمتي وهي تحكي قصة ولادتها . . أنتفض على سريري :

ـ كنتُ أرتعد رعباً من شدة الانفجارات . . خرجنا من بيتنا

مشينا أكثر من خمسة كيلو مترات في الظّلمة ووسط القذائف المتطايرة والصواريخ التي تسقط فتحيل الليل إلى نهار أحمر مشع . . أركض وأستنشق الغبار الأسود والأتربة على امتداد الطريق الفارغ الموحش . . نلمح وجه الموت كمنجل يقطف الشجر والحجر والرمل

ألم شديد ومغص يتملّكني . أتألم ولا أستطيع الوقوف ، أجرُّ أقدامي جراً . . زوجي أمامي يحمل الصغيرات . . بدأتُ أهذي وأوصي زوجي على البنات وأتشهّد .

أتأملها وهي تحكي وأقول لنفسي :

عندما تستمع لآخر يحمل لون وجعك ونبرته . . يصبح الجرح لطيفاً بعد أن كان حارقاً!!

تكمل :

وصلنا مركزاً من مراكز الإيواء . . شعرتُ بحرارتي ترتفع مع ارتفاع أصوات القصف القريب ، شعرتُ بالطلق يزداد ويزداد ، جسدي يرتجف ويتشنج ، وعلى فرشة اسفنجية تلتصق بالأرض ، وفي مكان مظلم وقاس ، بدأ جسدي يتهاوى وصرخاتي تعلو . . أسرعت إحداهن وضعت عن يميني ويساري بعض الأقمشة على طول حبل علقته حتى تشكل لي حاجزاً يكفل لي بعض الخصوصية أثناء الميلاد . . شعرتُ بأني لا أستطيع حماية طفلي الذي في أحشائي ، ولا أطفالي الذين يصرخون لصراخي ، تلك المرأة التي كانت تساعدني لم تكن تتخيل في يوم من الأيام أنها ستكون (الداية) التي تساعد امرأة أخرى على الولادة وقطع الحبل السري بسكين مطبخ على عجل ، لم يكن لديها أي خبرة لكنها ساعدتني وظلت تقرأ عليَّ آيات القرآن حتى جفَّ ريقها خوفاً ، ولكنها بقيت جانبي تشدُّ أزري ، مع أننا نسمع أقدام

الموت ينتشر في كل زاوية . . ورغم هذا الجمر المشتعل والذي ملأ العين والأرض إلا أن الحياة تأبى إلا أن تعزف موسيقاها . . ويخرج طفلي ليسطع كالنور ويتمايل بين يدي تلك المرأة التي بالكاد أعرفها!!

تبدد الخوف وما عدتُ ألمح له أثراً ، نظرتُ حولي . . أمي أخواتي وإخوتي . . الأطباء كلهم حولي . . بدأ قلبي يهبط ويعلو ودمعت عيناي وأخذت نفساً عميقاً ، ورحتُ في غيبوبة ، ولم أصحُ إلا على صوت الطبيب يهنئني بالسلامة!

ابتسمتُ وحمدتُ الله كثيراً ، كانت العملية صعبة والآلام شديدة ، لم تكن حولي في تلك اللحظة ، لقد كان ترفاً لفلسطيني مثلك أن يكون بجانب زوجته كبقية الأزواج ، لم تسمع صرخة وليدك الأول!! لم تحمله بين ذراعيك وقد انتظرته سنين طويلة! لم تؤذّن في أذنه وتمسح على رأسه وتحنّكه بتمر الغضب!

وضعوا الصغير على صدري ، فتّشتُ عنك في ملامحه ، تلمستُ يدك في قبضة يده ، قربته أكثر لأشم أنفاسك الحارة من وهج نفسه الضعيف ، وجدتك فيه ، رأيتُ عينيك في عينيه نصف المُغْلَقَتين ، قبلته ووضعته جانباً وبكيت! مكتبة الرمحي أحمد

من بعيد . . ألمح وجهاً يتلصص على الحدث ، يقترب ليُسرَّ إليَّ بخبر :

ـ سيكون معك قريباً . . لا تقلقي . . ستحملين هذا الطفل وتضعينه على صدر والده .

لقد جربتُ هذا الشعور من قبل . . جربتُ أن أحمل مولوداً إلى هذا الكون دون أن يكون له والد يحمله بين يديه أو حتى يراه ، لقد اختبرتُ هذا الألم وذُقته ، فكيف لا أقوى صبراً أن أنتظر ساعات أو

أياماً أو حتى أسابيع!! في النهاية سيحمله أبوه ، سيضمُّه إلى صدره ، سيجهش بالبكاء ، سينام في حضنه ، سيمنحه طلعة المقاومين ومقلاع الشهداء!

سيحمل عمر كما اتفقنا أن نسميه

الْعَلَمْ
هيام

لم يخطر ببالي أبداً أن يُحلق هذا الوطن أعلى مما يصل إليه علم يُرفع عنوة على سارية مدرسة وعلى غفلة من أعين الاحتلال !

أنتفض في مكاني ، عندما أسمع خبر عملية من عمليات يحيى ورفاقه ، أردد بزهو

- هاهي اليد التي رفعت العلم في يوم ما ، ورمت الحجارة استطالت ووصلت إلى أبعد مما يتخيل الاحتلال .

تسيقظ في مخيلتي حادثة رفع العلم على سارية مدرستي ، توقظ هذه الحادثة معها أحداثاً لم تكتمل ، ولم أعرف بقيَّتها!

أحكي ليحيى ببطء . . أترنم بالكلمات . . فأنا أشعر بالزهو لحكاية تقف في خط متوازٍ مع حكايا يحيى ، فحكايا الحجارة والأعلام المرفوعة عنوة كانت هي البداية التي أشعلت وقود المقاومة الفاعلة التي خرجت من عنق الزجاجة . . وجعلت المقاومة أعمق وأجدى وأكثر تأثيراً!

مدرسة الزاوية المختلطة . . هو المكان ، فقد كان أبناء قريتنا يدرسون في قرية الزاوية القريبة منا لعدم وجود مدرسة ثانوية في بلدتنا آنذاك .

١٩٨٦ ، هو زمن الحكاية قبل الامتحانات النهائية

أسير ببطء . . أشعر بأن قلبي يكاد يتوقف عندما ألمح العلم يرفرف على شباك غرفة المعلمين من جهة الشارع القبلي . العلم الذي رُسم بألوان الصابون تمّ تعليقه في منتصف الليلة السابقة .

في الصباح لم يستطع أحد الاقتراب . . تجمَّع الطلبة والمعلمون وأصبحت المدرسة مزاراً . . يُهرع إليه كل من في القرية . . رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً!

كان أقصى ما في يد المقاومة . . رفع علم . . أو رمي حجر !!

في هذه اللحظة يلتقي الخطان المتوازيان ، عندما يقرر يحيى أن يُكمل الحكاية لأتفاجأ وأنا التي كنت أظن أنني وحدي من يملك حق رواية العلم بأنه يشاركني فيها !

يكمل يحيى . . فيما أنا أشعر بشعور مختلط . . مشبع بالفخر والقهر في آن واحد!

بدأ الاجتماع في (الجلجل) غرب قرية الزاوية ، لتحديد مهام المجموعات وتوزيعها

المجموعة الأولى كانت مهمتها إغلاق المداخل بالحجارة ، أما المجموعة الثانية فكانت مهمتها تعليق العلم في (خلة الشرقية) على أسلاك الكهرباء القُطْرية . . وهذا العلم أُطلق عليه العلم الصامد ؛ لأن الاحتلال لم يستطع إنزاله مع أنه أطلق عليه الرصاص!

المجموعة الثالثة فمهمتها تعليق الأعلام على الأعمدة وكتابة الشعارات الوطنية على الجدران ، أما المجموعة الرابعة فقد كانت صاحبة المهمة الأصعب وهي تعليق العلم على قمة المئذنة

أنهت المجموعات عملها ، وبعد صلاة الفجر انطلقنا نحو منطقة

(الهدد) وسط البلد ، نحمل العلم الذي حاكته بالأيدي الأمهات والأخوات .

نسير باتجاه المسجد . . نجد باب المئذنة مفتوحاً ، نصعد الدرج حتى نصل الصيوان ، ويصعد أحدنا (سفيان) ويتسلق القبَّة التي تبعد ما يزيد على ٤ أمتار ، بلا حبل ولا أي شيء يربطه!

يحمل السارية والعلم ، حركة الريح تلف المكان ، ما هي إلا دقائق معدودة ويرفرف العلم فوق المئذنة بشموخ وإباء .

نتوجه نحو الجبل الأزرق . . وهناك في باطن الجبل نلتقي كل مجموعة تأتي من مسار مختلف ، ننام ويحرس بعضنا بعضا

عندما ينتصف الليل ، أيقظنا أبو العبد ، الشنانير تتطاير ، سيارات الجيش تظهر على طريق بلدنا ، ننهض سريعاً ، نترك المكان إلى منتصف جبل الكروم .

نعود في اليوم التالي نستكشف . . الوضع . . عرفنا من خلال آثار أقدام الجنود أنهم كانوا هنا . . فكتبنا لهم باللغة العبرية :

الكابتن تسفيكا

هذه الأرض فلسطينية . . ذرات ترابها من رفات أجسادنا ، ونحن من سيكتب النهاية . . نهايتكم ، الحجارة تحمل الحقيقة ، شجر الزيتون ينبض ويتكلم . . يحكي لنا أنكم كنتم هنا الليلة الماضية ، وقد وصلتم في الثالثة صباحاً ، وقفت الجيبات العسكرية على طريق رافات ، ولكي تصلوا إلى الموقع مشيتم نصف ساعة كالفئران ، تتلصصون وتسترقون أي صوت ، تجفلون ، تبولون على أنفسكم ، كنا نبعد عنكم بضعة أمتار فقط ، ولأنكم جيش خائف ومرعوب فلم تروا أبعد من أرجلكم .

وضعنا الورقة وذهبنا إلى سفح الجبل المقابل ، وفي الليل طارت

الشنانير معلنة قدوم جيش الاحتلال .

جلسنا نترقب ، أضاءت السماء بالقنابل الضوئية والصوتية ، أخذنا نضحك ونحن نراقبهم ينتشرون في كل الجهات ، يبحثون عن اليد التي كتبت بينما تسفيكا يمسك الورقة يعصرها بيديه ويبصق على الأرض ويصرخ على الجنود بحنق :

- عودوا بسرعة ، سنغادر المكان .

وداد
الحصار

يا مدينة تحمل النّور حتى وإن فقدت عينيها ؛ فالأعمى والبصير يستويان في غرفة ظلماء ، ولا يرى في الغرفة الظّلماء إلا من يمتلك نوراً في قلبه!

يا جَمْر الموت بين القصف والصمت ، صمت من باعوا وقبضوا!

ياعطر الأشلاء ويا نزيف الأطراف المبتورة . .

يا شهقة الروح على جسد أنهكه الحصار! ويا رائحة الشعر المحروق ، ويا حنّاء الجلد المتفتّت!

لكل ذلك ؛ غزة مدينة استعادت ملامحها!! لايغرنّك العويل ولا البكاء . . يكفي أنها مدينة بلا أغلال تنفّست الحرية والكرامة! بصقت في وجه الجبناء ، وتنفست الرّجولة الحقة ، فيما بعضهم يرمقها بغيظ لأنها مزقت هيبته .

غزة . . .

رغم الموت هاهو دفء الحياة يتسرّب إليها! قد يقول أحدهم . كلام فارغ . .! أين الحياة ورائحة الموت تزكم الأنوف ، حتى بائعو الورد أصبحوا يبيعون الأكفان!

يقولون ذلك . . لأنهم لم يعرفوا أن اللحظة التي تحفر فيها قبراً لروح تنتصب فيه روح أخرى .

رغم القذارة العربية هاهي غزة تتطهر ، وقد التصقت بالمقاومة فغدت رغم الدماء النازفة صبيّة غضّة يدها خضراء .

رغم العهر . . رغم القهر والعتمة . . هاهي غزة تعيد رسم الخريطة وتكشف الوجوه البشعة ، رغم الأشلاء التي لا تجد لها قبراً مازالت غزة تركل وتركل حتى لا تركع!

قبر!!

قبر!!

هكذا كان يصرخ لا يريد لصغيرته التي أنهكها المرض سوى قبر! صغيرته التي فارقت الحياة بعدما أصيبت بفشل كلوي .

أرجع إلى الوراء حيث كنت أراه يتنقل بها من مشفى إلى آخر ، يذهب إلى مشفى شهداء الأقصى في وسط غزة . . ثم إلى مستشفى النصر للأطفال ، يقفون مكتوفي الأيدي ، دامعي الأعين لا حول لهم ولا قوة ، فلا أجهزة لغسل الكلى ، لا أدوية ، لا أدوات تعقيم ، لا شاش طبي ولا إبر ولا بنج!

أرقبه يعود بها عصراً ، وقد احدودب ظهره مع أنه لم يتجاوز الثلاثين ، وتلوّن وجهه ببقع الشمس ، وصار صوته بعيداً غائراً وكأنه يخرج من كهف وهو يمسّد على رأسها المنتفخ :

ـ ياعيون أبوك . . والله لتنحلْ . والله لتشفي وترجعي زي أول!

يصل بيته . . يمسح عرقه ، ويلتقط أنفاسه ، ويمسك ورقة وقلماً ويبدأ بمراسلة مستشفيات ال٤٨ ، يبعث رسالة إلى مستشفى هداسا عين كارم مع التقارير الطبية ، يرفض المستشفى استقباله نهائياً يبعث بالتقارير إلى مستشفى نهاريا ويرفض أيضاً

يقف على شرفة منزله يصوّب بصره الحادّ نحو المعبر المغلق ويصرخ

بصوت يسمعه كل الجيران :

ـ أيعقل أن نموت كالفئران؟

يجيبه كل من يسمعه ، ولكن بلا صوت وبكثير من الإشفاق :

ـ خطيئتنا أننا لم نركع للمحتل وما بدلنا تبديلا . . السبيل الوحيد لفك الحصار هو أن نسلم رقبة المقاومة للمقصلة

يغلي الدم في جسده . . يتحول إلى بخار أسود . . يمضي نهاره وقد نهشت الأرض أقدامه ، وما تبقى من أحلام مصفَّدة!

أراه يخرج صباحاً . . يحملها بين يديه ، وقد تضاعف حجم رأسها أضعاف حجمها الطبيعي ، وانتفخت أطرافها بسبب انحباس كميات ضخمة من السوائل داخل جسدها . . يخرج ويطرق كل الأبواب!! يذهب إلى المعبر ، ولا يستطيع أن ينظر إليه وهو عار يكشف سوءته معبر يسجن مليون ونصف المليون فلسطيني . . يجعلهم فتاتاً تحت أقدام العدو ليسهل ابتلاعهم كلقمة سائغة!

يقف على المعبر منذ الصباح . . المعبر الذي باع دمنا وطفولتنا

لا رائحة ضمير حي . . تفوح في الأفق!

لا هشام بن عمرو . . لا مطعم بن عدي . . لا البختري يأتون ليمزقوا الصحيفة الجائرة!

بقعة الموت تكبر يوماً بعد يوم ، وتبتلع مزيداً من الأجساد الغضّة الصّابرة .

في ذلك اليوم عاد من المعبر منكسراً ، مذبوحاً ، صامتاً . . يحملها بين يديه جسداً بلا روح .

لم يصرخ!!

لكنه صرخ عندما قالوا له لا يوجد لها قبر!

. . . يذهب لمقبرة النصيرات . . يحفر بيديه القبر . لكن القبر يبقى مفتوحاً! لا يستطيع بناء القبر لعدم وجود الحجارة!

الحجارة نفدت بسبب الحصار . . الاحتلال يمنع دخول مواد البناء والتعمير ، والقبر لا بد أن يبنى من الداخل ؛ لأن تربة غزة رملية وقد ينهار القبر .

تتصلب العروق ويكبِّله العجز ، يمسح عينيه بكف مرتعشة ويصرخ :

مسكينة أنت يا صغيرتي . . خذلك العرب وأنت على قيد الحياة ، وخذلك القبر الذي رفض أن يضم رفاتك!

بينما يتمادى دعاة السلام والسماسرة وبائعو الضمائر في غيِّهم . . يتمادى الموت المكشوف في هتك طفولة شاحبة .

يضرب الأرض بأقدامه وكأنه يكسر القيود ، متعب ، منهك ، وهو يرى المتساقطين ، مطعون بسكين ذات نصلين ، نصل العدو ونصل العروبة! لكنه يوقن بأن فلسطين لن تكون إلا له

فلسطين تتراقص في عينيه . . تهدهده ، تمد يدها نحوه وتمسح حزنه . . يرفع رأسه عالياً . . يركض باتجاه بيته . . يصعد إلى سطح منزله حيث يحتفظ بمجموعة من الحجارة فوق السطح ، حجارة تمنع السقف المتهالك من الطيران بفعل الريح . . يعود مسرعاً إلى المقبرة .

وما بين الفم الذي يرفض تقبيل بساطير العدو واليد التي ترفض ذلّ السّلام . . يبني القبر من الداخل يحملها ويدخلها الأرض التي عشق . . يرتفع التكبير

ينظر حوله . . إنه يحتاج إلى غطاء للقبر . . يركض جاره إلى بيته ، يأتي ببلاطة كبيرة كان يحتفظ بها أمام بيته ، يحمل البلاطة إلى

المقبرة لتكون غطاءً لقبر الصّغيرة .

يغطي القبر . . يجلس بجانبه . . تهطل دمعات ملمسها نارٌ . . حيث الليل ساكن وجاف ، يمضي معها حيث الأرجوحة والبكلة الحمراء ، حيث الأقدام التي تتعثر وهي تركض صوبه نحو باب الدار فاتحة يدها لحضن دافئ :

ـ بابا جبت لي معك إشي زاكي؟

يغطي قبر الصغيرة وقد توزع دمها على القبائل ، وكل ذنبها أنها لثغت بأحرف المقاومة!

بياع الورد
وداد

جملة معترضة وجه هذا الورد المضمخ بالعطر ، إشارة استفهام منهكة في زمن الحرب ، فاصلة خجولة في أرض تشتعل ناراً كم هو حانٍ ورقيقٌ هذا الورد وهو يعكر صفو الرعب ، ويلثغ بحروف مدينة نائمة على صدر الدمع اسمها غزة .

رضوان يغفو الورد على كتفيه ويتفتح بين أصابعه . يبيع الورد على شاطئ غزة ، يتعثر على الأرصفة ، بين لحظة وأخرى يدنو من أحد المارة فيعرض عليه بضاعته ، لكنه يلمح المارة تهرب بعيداً والحيرة تسكن ملامحهم ، يرددون بسخرية باكية :

- ورد في زمن الحرب!

متثاقلاً ينقل خطواته ، يحضن ورده بانتشاء ، يتملّى روعة الورد من حوله ، يتساءل بمرارة :

- إلى متى سأستمر؟ وهل يمكن أن أتخلى عن وردي طوعاً أو كراهية؟

بالأمس فقط كان بائع الورد الأشهر في غزة كلها ، مع الورد كان يتغزل بوجه غزة الأجمل ، يلقي ورده على أقدامها فتشتعل وجداً وهياماً بأبنائها . متعثراً يعود إلى بيته ، يحمل ورده الجافّ ، فتمسك

زوجته بتلابيب ثوبه : الجوع والتعب ملامح وجهها ، الصمت والدمع شغب أطفاله . .

- نريد خبزاً يارجل! نريد أن نأكل . عندما تحمل وردك تنسى الأفواه الأربعة الجائعة التي تنتظرك ، هذه الورود لا تطعمنا خبزاً سأفتتها وأرميها . يجب أن تبحث عن عمل آخر يبث الحياة في عروقنا الجافة .

يتكوم عند باب البيت ، يضع رأسه بين يديه ، ويئن بصمت :

«بيع الورد هو الشيء الوحيد الذي أتقنه . هو منجل أحزاني وترنيمة فرحي ، كيف أتركه وأمضي وإلى أين أذهب؟»

يخرج مسرعاً من بيته يشهق باكياً ، يقترب من الرصيف الذي كان يبيع عليه الورد ، رائحة نتنة تعصف بأنفه ، رائحة الموت ابتلعت رائحة الورد .

ها هو يلملم بقايا ورده المسحوق بقذائف صهيونية ، يسير تائهاً تتقاذفه الأرصفة الغافية والأنفاس المخنوقة ، يدندن وبنظرات زائغة :

«في غزة لا ورد لا خبز ، ورائحة الموت هي رائحة الورد الجديدة

في غزة لا ورد لا خبز ، ورائحة الموت هي رائحة الورد الجديدة .»

لسنوات عدة كان منذوراً لرائحة الورد ، وللونه الأزهى ، كثيراً ما كان يراقب بائع الأكفان على الرصيف المقابل : فرحة عينيه وتراقص صوته يدلاّن على أنه الأسعد والأغنى ، لكنه كان دوماً غارقاً في عطر الورد الذي يسكن مساماته

ولما ملّ انتظار عشاق الورد ، وهجران الزوجة ، ودموع الأطفال ، جرى إلى بائع الأكفان «كل الحي علم بالخبر» قالت زوجته ، وماذا في ذلك؟

وحده بائع الأكفان الثري تعاطف معه ، أخذ يعلمه أصول الصنعة الجديدة الأكثر إثراء في غزة كلها ، (طريقة العرض ، أنواع القماش المصنوع منه الكفن ، وأنواع الحنوط ، . . . . . كافور مسك . .) ولم يخش من منافسة رضوان له في رزقه فالموتى كثر

وبدأت رحلة رضوان في بيع الأكفان ، في أول الأمر كره نفسه ، وأغلق عينيه وسد أنفه . فكر طويلاً في أن يعود إلى ورده ، لكن تورّد وجه الزوجة ، وشغب الأطفال جعلاه يفكر ألف مرة قبل أن يعود ، لم يكن أمامه خيار آخر ، ففي زمن الحرب تزدهر تجارة الموت ، رضوان صار حديث غزة كلها «من يستطيع أن يرى رضوان وهو يبيع الأكفان ؟» إنهم هم الذين رفضوا ورده وفروا منه ، إنها الحياة المتغيرة التي أجبرته أن يدخل بيت الطاعة كرهاً

كم يشتاق أن يحضن ورده ، كم يشفق على رقته وجماله من الجفاف والازدراء ، يكاد يعتذر لورده عن خطأ ليس له ذنب فيه ، لكنه صار يستعذب طعم الخبز وشغب الأبناء .

(ملحق)

من مكانها على الأرض (مفتتة . . مسحوقة) رأت الوردة رضوان يتأبط الأكفان يحملها كما كان يحمل ورده وأغلى ، وبسرعة يبيعها ، حيث الموتى على قارعة الطريق . زحف رضوان ببطء نحوها ، خفق قلب الوردة وتمنت فقط لو يلفها بكفن!

هيام
وطارت الشنانير

بين صوت الديك معلناً الفجر وصوت المقاومة شبه عظيم ؛ فكلاهما يبتكر النور !

أحداث الانتفاضة تشتعل أكثر وأكثر ، الجيش يملأ شوارع بلدنا عاد يحيى بعد شهر غياب قضاها مع المطاردين في قرية (بيت ريما) كان منهكاً لكنّ عينيه كانتا تومضان بالفرح والعزم والتحدي!

استفزني الوميض العامر بالعزم . . قلتُ له :

- هناك حكايا لا تؤخر أبداً ؛ لأنها إن تأخرت فسدت !

يضحك ويتمتم :

- فش فايدة !

أجلس في مواجهته . . أنظر إلى ذلك الشاب العشريني الذي يركض نحو فلسطين حرة ، بكثير من الحب وفائض من الجنون . .

يُفتح باب الحكاية فيصدر صوتاً سيّالاً رقراقاً حيناً ومرعباً مدهشاً حيناً آخر . أرهف سمعي وأحدق طويلاً :

هناك أسفل البئر بين الحبلات كنا وعلى مدار أكثر من شهر ، أسَّسْنا لمخبأ سري ، الجِنُّ الأزرق مستحيل أن يعرفه ، جدران المخبأ من السناسل وسقفه من الإسبست ، وتمّ تغطيته بالتراب ، وعلى مدخله شجرة زيتون وصخرة ، لا يمكن لأحد أن يميِّز المكان ، إلا من يحرث الأرض ويزرعها!

في هذا المكان كاد اليهود أن يمسكوا بي !

كاد قلبي يتدحرج من صدري ، أمسكته وقذفته إلى الداخل ، أكمل يحيى وهو يرى آثار كلماته على وجهي :

تسللنا إلى مخبأ الأرض بهدوء ننتظر بفارغ الصبر صياح الديك ؛ فقد مضى وقت طويل لم نر أهلنا وزوجاتنا . . وما إن صاح الديك حتى خرجت أستطلع الوضع . . سمعت الأصوات تتعالى . . أحسست بالأمان . .

- هات السُّلَّم

- جيب المفرش

- ودِّي الحمل

فعرفت أنهم يجهزون لقطف الزيتون

دفعت الصخرة بهدوء وتروٍّ ، صعدت نحو البئر كي أجلب الماء للشباب في المخبأ ، ولأعود وأخبرهم بأن الطريق سالكة ، أمسكت الدّلو والحبل كي أنشل الماء ، فطارت الشنانير من تحت الخرّوبة ، كان جسدي منحنياً وأنا أسحب الماء فلمحتْ عيني جهاز اللاسلكي بجانب العريشة التي قرب الخرّوبة ، وقع الحبل والدّلو من يدي ، دارت بي الأرض ومادت ، لم تعد أقدامي تحملني ، زحفت سريعاً نحو المخبأ ، أحكمت إغلاق المدخل ، تنفست الصعداء بعدما تأكدت أني في أمان .

لقد وجدت نفسي بين الجنود الذين يفترشون الأرض ببزاتهم العسكرية الخضراء التي تتماهى مع لون شجر الزيتون والتراب وبنادقهم مصوبة باتجاه أي تحرك !

كنتُ خائفاً هذا أمر مؤكد . . لكنّ مصدر الخوف لم يكن خوفي على نفسي . .!!

في تلك اللحظة كنت أخاف أن لا أصل وأراك وأرى أمي وأبي ، أخاف أن أصحو من سكرتي ، فالوطن يُسكر من يعشقه ! ولا أريد أن أصحو من هذا العشق !

تمدَّدت داخل المخبأ وغَابت الأصوات . . وغلبني النعاس ، جاءت أمي وقفت عند رأسي قبّلتني ، ضمتني بشدة ، رأيت علامات التعب والإجهاد على وجنتيها ، واخضرار كفيها من قطف الزيتون ، تبكي ، أشعر أنني المسؤول عن هذه الدموع ، تتمتم :

- ضعفان كثير ، شكلك ما بتوكل يمّا!!

أصحو على صوت بكائها مختلطاً . . بـ

يا ظريف الطول . .

وفجأة يعلو الصوت الذي كنا نخافه ونرتجف منه ونحن صغار . . أسمعه يخترق المخبأ . . يتسلل برقّة . . لم أعهدها ، في هذه اللحظة تحوَّل الفزع إلى سياج آمن . . يحوطني ، إنه صوت جدنا يا هيام ، أسرعت فتحت المخبأ سريعاً ، نظرت إليهم من بعيد ، كانوا يلتفون حول شجرة زيتون ويستمعون لأوامره :

- بدّي أسمع صوت حب الزيتون مثل المطر !

جئته من الخلف ، حضنته بشدة ، فجذبني للأمام ونظر بشوق :

- إنت هان يا قرد ، أكيد جعان ، نادوا له إمه ومرته !

قلت له :

-لا يا سيدي أنا بروح عليهن مش همّا يجوا

النكبة الجديدة
وداد

الحكاية لم تنته!!

الحكاية تعود!!

تلتمع كنهر بني إسرائيل ، تناديني كي أحكيها كما حكتها جدتي ذات ليل . ذات نداء!

تعود الحكاية باشتعال أقوى . . بانتباه ووعي أكبر . . قد تظن لوهلة أنك نسيت وتركن حكايتك في زاوية عميقة وبعيدة من زواريب الذاكرة . . لكنك فجأة تكتشف أنها حية ونابضة بمجرد أن تأتي حكاية أخرى توقظها وتهزّها بعنف فتندلق وتسيل . . يسيل الجرح القديم مختلطاً بالجرح الجديد . . جرح يسيل يشبه ما قبله لا تختلف إلا الأسماء!

من قال إن النكبة عاقر؟

يجفّ حلقي قبل أن أجيب :

بل النكبة ولاّدة!!

الوجوه الكالحة ذاتها والشفاه الجافة المشقّقة ، الشّعر المشعث ، الدّمع الحارق ، والجلد الخشن المحمرّ ، وفي بعض الأحيان الأجرب ، الأيدي المزرقّة ، والأقدام الحافية . . هذه ملامح الوجع الجديد . . النكبة الجديدة . . اللجوء الحارق!

الذّعر الصّراخ . . الذّهول . . القهر والوجع . . هذه ملامح مراكز الإيواء (النكبة الجديدة)

هل يعقل أن نكبر ستة وستين عاماً لنعود من جديد حفاة عراة!!

هكذا تصرخ عجوز سبعينية تجلس على باب مدرسة وكالة الغوث .

تبعثرت الحكايا وتمزّقت الأنفاس وصرتُ كورقة صغيرة تتقاذفني المشاهد يَمنة ويَسرة!! ألتفت يميناً فتجحظ عيناي ، وألتفت شمالاً فأشهق وأهرب حتى لا أرى أكثر مما أحتمل!

ترفض أن تسمع كلمة شدّي حيلك . . شِدّة وبتزول! لا تريد أن تسمع أي كلمة مواساة!

أقف أتأملها وهي تصبُّ الماء على الجسد الغضّ الصّغير الذي يمتلئ بالبثور الحارقة والبقع الحمراء . . قارورة ماء صغيرة تصبها على الجسد المشتعل فتزيده ألماً

تصيح فيمن تراه آتياً نحوها :

إلي شهر ونص ما تحمّمت ولا حطّيت الميّ على جسمي ، تشير إلى امرأة صامتة تجلس بجانبها :

شايفة هذي بتنام وبتقوم بجلبابها ومنديلها على راسها . . إلها أكثر من شهر ما شلحتهم!

بدت الأجواء متوتّرة والصّمت يخيف أكثر من أي وقت مضى

في عالم لا يحكمه قانون ولا يرتعش للعروق الجافة ولا يهتزّ للدمع . . وكل مهمّته احتساء الخبر وعدّ الموتى . . تحترق النّساء والأطفال كعود جاف!!

نسيت أن لها شعراً . . نسيت أن لها مشطاً ومرآة ، المرأة في مراكز

الإيواء كالقمح في البيدر تدور الرحى فوقه فتطحنه جيئة وذهاباً

هل للموت لون واحد؟

ـ ليس للموت لون واحد!!

الصّمت موت ، والطّفولة الكالحة موت ، والحصار موت ، والتلّعثم في قول الحقيقة موت ، والصرخة الغائرة في صدر الرجولة موت ، والدمع الثقيل في عين الأم موت!

أربع حروب متوالية خلال ثمان سنوات ، حروب تهدف إلى جعلنا نتعود الدم ، ونستأنس الغيظ والارتعاش والّصمت .

نألف مشاهد القتل والتدمير والأشلاء . . نتعوّد مشهد النّعاج وهي تساق للذبح دون أن تملك حتى حق الثّغاء!! نألف حتى نتحجّر!

أمسح عينيّ بطرف ثوبي . . أحاول أن أللم صوراً في ذاكرتي ، أحاول أن ألصق ما تمزق منها وأعيد ألوان ما بهت ، أعود بذاكرتي إلى حكايا جدتي ، أتحسّس صندوقها المصدّف ، الذي تفتحه كل ليلة بعد انتهاء حكايتها ، صندوق استقرت بداخله أوراق طابو قديمة تجاوز عمرها عشرات السنين ، أوراق مصفرّة ، مهترئة الأطراف تظهر بعض الأحرف ويختفي البعض الآخر

مازالت كلماتها ساخنة لاسعة كأنها تحكي الآن في هذه اللحظة :

طلعنا بأواعينا إلي علينا وظلّينا فيهم أكثر من شهر ، لما كنت أحكي مع حدا أحاول أبعد لأني بعرف إنه ريحتي ما بتنطاق ، ما كنا متخيلين أنو ما نرجع!! إمي طبخت الطبخة وجهزتها عشان بس نرجع العصر يكون الأكل جاهز ، وستي خبزت الخبزات وغطتهن بشاشتها البيضا عشان بس نرجع المسا نتعشى عليهن .

يقاطعها جدي ليفتح هو الآخر صندوقه ، يتباهى بالفؤوس

والمناجل القديمة والسيوف والخناجر التي حملها معه ، يُخرج مفاتيح بيته وبيوت أعمامه ومفاتيح تجاوزت أعمارها عشرات السّنين .

يضع عينه في عين كل واحد فينا . . مع ابتسامة واثقة ويقول :

يا سيدي لو احنا متنا وما رجعنا أكيد أنتو رح ترجعوا وتفتحوا الدّار وان إنتو ما رجعتو ولادكم راجعين أكيد .

أترك جدي يحكي ، وأركض متوغّلة في حقول الذرة حتى أتماهى معها وأرتمي على صدرها ، تنتابني رغبة قديمة في التعلّق بغيمة ، والتأرجح على حبلها الأبيض من علٍ ، أشم رائحة التراب المختلط بحبّات المطر الخجولة التي سقطت قبلَ موعدها . . وكموجة حانية أتلمسّ شقائق النعمان ، وأمشي في دروب القرية ، بينما في الجو لسعة الخريف الباردة الرائقة . . أقفز من هنا لهناك لأكتشف ألوان قوس قزح!

أنتفض كعصفورة داهمها المطر عندما أرفع عيني لأرى تلك المُغر التي ما زالت تحمل خطوط دماء الشهداء المشتعلة!

في كل ليلة أبدو أقرب إلى الحلم ، وفي بعض الليالي أشعر أن الحلم تخلّق وصار حقيقة!

كنتُ أعيش مع ذاكرة جدّي وجدّتي . . هذه الذّاكرة لم تكن قيداً لنا . . لقد كانت طريقنا لنرسم خطّ العودة . . لنصنع مستقبلاً جديداً

لكنني عندما دخلت مراكز الإيواء تفاجأت أننا ما زلنا نعيش في هذه الذّاكرة ، وكأن الزّمن توقف عند النّكبة الأولى!

هل اقتربت بنا هذه الذاكرة إلى الحريّة والعودة؟

أم أحرقتنا عندما اكتشفنا أنها عادت مرّة ثانية في هذه الحرب؟

وأيهما أكثر إيلاماً . . أن تبقى الذاكرة محتفظة بجرحها وأغلالها وأثقالها؟ أم تبوح؟

مهما كان الألم عميقاً وكبيراً ، بمجرد أن تبوح به تتخلص من إنهاك القلب وشقاء الروح ، عندما تحكي يتعطر الدّم وتُضاء قناديل العودة!

أن تصمت وتحتفظ بمخزون ذكرياتك معناه أن تتقبّل المزيد من الطَّرق على رأسك ، أن يصبح الدم المسفوك رماداً غير قابل للاشتعال!

أن تحكي ذلك يعني أن الجمر سيشتعل وسينتصب الوجع المحنـيّ!

كثيرون صمتوا! بقوا عند النكبة الأولى! . .داسوا على الزجاج المكسور وقد غارت أصواتهم فلا نعرف لهم صوتاً! عندما أنظر في عيونهم أشعر بهم وقد تحجّروا ، وأن ذاكراتهم قد تصلّبت ، وأن فلسطين لم تنبض في عروقهم ولن تنبض في عروق أبنائهم وأحفادهم!

كم أشعر بالامتنان لجدتي وجدي على حكاياهم . . فهي التي جعلت الدِّفء يسري في أوصالي الباردة . . تلك الحكايا طوقت قلمي وبثّت فيه الحياة!

عندما أغمض عينيَّ عن مشهد من مشاهد مراكز الإيواء يعلو صوت جدي مرّة أخرى . .

خرجنا يا سيدي وطبختنا على النار وما رجعنا لهلا!! ظلينا نمشي والنّيران والقذائف تلاحقنا لحد مالقينا مغارة كبيرة . . لقيناها مليانة شوك وحيات وعقارب ، أشعلنا النار فيها وشفت بعيني الحيات وهي بتخرج برّا المغارة . . ظلت النار مشعلة للظهر بعدين دخلن النسوان ينظفنها حتى نقعد وننام .

دخلنا المغارة ولما صحينا . . صحينا جوعانين وميتين من العطش ، طلع ثلاث رجال من العيلة للأراضي الزراعية القريبة على حمار

وأخذوا معه الخُرج(*) وراحوا لقّطوا لنا فجل وبصل أخضر ورجعوا ومعهم أكوام من الخبز جمعوهم من أهل البلد . . أكلنا الفجل والبصل الأخضر بترابه لأنه ما كان فيه ميّ كفاية!

أبوي الله يرحمه ما رضي يروح على مكان فيه ناس بيعرفهم ـ عزّت عليه نفسه ، كان إله أصحاب كثار في القرى ، في كل قرية إله صاحب ، بس لأنه كبير قريته ورئيس بلديتها ومن كبار ملاكي الأراضي ، رفض يروح على أي مكان بيعرف فيه حدا ، وهيك تا وصلنا لغزة لأنه ما بنعرف فيها حدا .

قعدنا في موقع مسجد العباس الآن ، وبعد أيام توزع اللاجئون على المدارس ، وإجت وكالة غوث اللاجئين ووزعت علينا البطاقات وأعطتنا طحين وسكر وحمص وعدس وعلب سردين .

كنا في شهر حزيران والدنيا زي النار . . وكثيرمن الأطفال ماتوا في أحضان أمهاتهم من كثر الحرّ!!

أصحو على النكبة الجديدة!

أفتح عيني فيختفي صوت جدي وجدتي . . ويظهر عُري من تعّرى طوعاً من الصامتين المساومين الذين باعوا غزة في سوق النخاسة!

طابور طويل . . يقف فيه النساء والأطفال . . رائحة الحمامات تزكم الأنوف ، الأطفال يقفزون كالأرانب خوفاً من أن ترتخي أعضاؤهم ويبللوا أنفسهم ، صرخة تندُّ من أحدهم ، صرخة مقهورة خجلى ، فألتفتت لأرى خيطاً رفيعاً من البلل يحطم ما تبقى من كرامة!!

أتساءل :

ما الفائدة في أن نقسم المصائب ونعطيها مسميات؟ فهذه نكبة

(*) وعاء جلدي يوضع على ظهر الحمار .

وذاك نزوح وهذا لجوء . . أما حروب غزة الأربع فهي نكبات تشبه النكبة الأولى!!

ما فائدة التسميات مادمنا كما نحن لم نتغير ، بقينا منكسرين ضعفاء ، مهزومين . . نستجدي حقنا على عتبات مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة والجامعة العربية . .!! ثم رويداً . . رويداً . . بدأنا نرى أن للّصّ حقاً في أرضنا وزيتوننا وقدسنا وبحرنا!! وصرنا نعطي تسميات أخرى للركوع والاستسلام والدخول في الجحر الصهيوني . . وصارت الخيانة والعمالة والتنسيق الأمني تعايشاً وتسوية مع الاحتلال!!

ستون عاماً بقينا كما نحن . . سوى مزيد من الدوران حول أنفسنا كثور الساقية!

أما الإعلام والدعاية فقد برعوا في تغيير المسميات . . وفي الإيحاء المكثف بأن المقاومة التي تدافع عن أرضها وعرضها هي إرهاب!

يبدو أنه آن الآوان لكي نسلم رؤوسنا إلى المشنقة ؛ لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لنثبت أننا ضد الإرهاب!!

النكبة الجديدة!!

اللجوء الجديد!!

مئات الآلاف من العائلات التي نزحت إلى المدارس هرباً من سياسة الأرض المحروقة التي ينتهجها الاحتلال ، نساء يشبهن الخرق البالية المرقعة التي يُمسح بها الغبار!! وجوه فاغرة فاها . . شاحبة الصمت أقسى لغة يمكن أن تسمعها في مراكز الإيواء!

امرأة تشير بيدها إلى فأر يأكل بقايا خبز متعفن أسفل مقعد دراسي وضعت عليه أكواب بلاستيكية ، وطناجر صغيرة ، وعلب معلبات مأكول نصفها!

طفل يفترش الورق أسفل سبورة داخل صف دراسي ، يمسك كتاباً بيد وباليد الأخرى شقيقه الرضيع الذي ماتت أمه في القصف الأخير!

ومع كل ذلك فالمصيبة في غزة تشبه المقايضة تأخذ منك لتعطيك . . تعطيك رغم كل الوجع والقهر . . مفهوماً جديداً للحياة ، وطريقاً آخر غير الاستسلام والركون ، فالطيور التي تبني أعشاشها ثم تسلمها لأعدائها لا تستحق أن تطير!!

اليوم تبدو غزة كلها مراكز إيواء . . غزة السجينة الجميلة التي تنام وتصحو في ثياب السجن . . فلا ماء ولا كهرباء ولا بنزين ولا دواء . . لا ضوء يتسلل من خلف النوافذ ، ولا ضحكات حيث الحناجر تمتلئ بطعم الموت!

هيام
العرس

لنا وطن يليق بالعاشقين المنتصرين ، والانتصار لا يعني كسب الجولة في المعركة . . الانتصار يعني أن لا أنكسر!

قد أنتصر يوماً وأنهزم أياماً . . هذا لا يهم . . المهم أن نستمرّ في القتال حتى تتحرّر الأرض ، قد نقطف ثمار التّحرير ، وقد نبذر البذور ولا نرى الثّمرة . . لكن بالتأكيد سيراها أولادنا

مجرد أن تقف وسط الرّاكعين فأنت منتصر . . مجرد أن تفرح فأنت منتصر . المهم أن لا تنحني!

طوال فترة زواجي من يحيى لم ألمحه يوماً يبدأ الكلام!

لكنه اليوم وعلى غير عادته . . أخرج من جيب قميصه صورة كان يحتفظ بها في محفظته . . جعل يتأمل الصورة ويضحك!

استفزني بضحكته . . نظرت إليه باستغراب ، قال وهو يسحب الكلام سحباً من بين رنين الضحكة :

-عمرك سمعتي بواحد تجوز خلال نص ساعة؟

فتحتُ عينيَّ على اتساعهما وتملكتني دهشة!! وجعلت أردّد :

ـ بنص ساعة تجوَّز!!

كيف؟

ومين؟

ـ هالشّب إلّي في الصّورة . . عملها يا هيام!

حملني يحيى معه حيث استعاد تلك اللحظات لذلك العرس الفلسطيني ، في ذلك البيت الحجري الصغير الكائن في قرية (الزاوية) القرية الملاصقة لبلدنا (رافات) ، كان ذلك في سنوات الانتفاضة الأولى

كان ذلك المطارد (رزق) يتنقل مع ٢٢ مطارداً آخرين بين الجبال والمُغر . . وفي ليلة قام (رزق) وصرخ :

ـ خلص بدي أتجوّز!

- قالوا له :

- إنت مجنون!! كيف بدك تتزوج وإنت مطارد؟

ـ قال : شو يعني . . المطارد ما بتجوز! أنا خاطب بنت عمي إلي سنة ورح أبعث لإمي تجهز كل إشي . . ، إنتو عليكم تأمنوني .

وفعلاً أمّنوا المكان . .

كل البيوت إلي حوالين بيت العريس من كل الجهات قاموا بعمل حفر في واجهات البيوت حتى يسهلوا على المطارد الهرب من بيت لآخر عبر تلك الحفر كانوا يضعون مكان كل حجر أكياساً من التبن .

دخل العريس . . البلد الساعة (الثانية ظهراً) ، كانت العروس جاهزة .

أمّنوا دخوله . . حوّطوا البلد من كل الجهات وبدأت النسوة حوله ينشدن بصوت هامس :

واحنا مشينا من بلد لبلد

واحنا خطبنا بنت شيخ البلد

واحنا مشينا من وادي لوادي

واحنا خطبنا بنت الاجواد
واحنا مشينا من حارة لحارة
واحنا خطبنا بنت شيخ الحارة
ثم يتبعنها بزغرودة خافتة من أم العريس وأخواته كن يزغردن ولم يستوعبن مشهد أن أخاهم المطارد أمامهم هو وعروسه
آويها
افتحوا باب الدار . . خلوا المهنّي يهنّي
وأنا طلبت من الله وما خيّب الله ظني
الحمد لله ياالله زِلن الهموم ان شالله
والمية على مجراها . . والنّصرة من عند الله
وتتبعهم عمات العريس بزغرودة أعلى قليلاً من الأولى
الحمد لله صبر قلبي ولا قصر
صندوق صوري انجبر من عقب ما اتكسر
سبحان من خلّى لجوم الليل تتفسر
وأنا فرحانة على هذا اليوم بتحسر
إخال نفسي معهم . . أشاركهم بصوتي المبحوح وأقول :
يا دار أبو رزق كلهم لابسين الخواتم في خناصرهم
قصّاد رب السما من فوق ينصرهم
نصرة قوية تجبر خواطرهم
ثم تعالت أصوات خالات العريس وتقدمن عدة خطوات قريباً من العريس وانطلقن بالمهاهاة :
والطول طول النخل والعنق مايل ميل
والخصر من رقته هدَ القِوى والحيل

يا نايمين الضحى واتنبهوا في الليل
رزق صاد الغزالة إلي عليها العين

وفجأة تعالت الزغاريد حتى إنهم خافوا أن ينفضح أمر العرس . . فالعملاء والجواسيس مالْيِيْن البلد!

وساد هدوء مكان العرس فجأة عندما بدأت تتسرب أصوات الجيبات العسكرية وهي تدخل القرية . . فبعث يحيى ورفاقه مرسال إلى النساء أن يوقفوا العرس وأن يفر العريس بسرعة!

لكن النساء لم يهن عليهن أن يخرج العريس دون أن يلتقي بعروسه . . فزفوا العريس إلى عروسه وخرجوا بسرعة ولملموا الحجارة في أطراف أثوابهن وبدأن يرجمن الجيبات العسكرية من هنا وهناك ومن تحت السلاسل الحجرية . . طبعاً توقفت الجيبات العسكرية في أول البلد نتيجة الرشق لتتبين من الذي يرشق .

كانت النسوة يرشقن ثم ينزلن رؤوسهن خلف السناسل ولا تتبين الجيبات مكان الرجم!

ظلوا على هذه الحالة إلى أن دخل العريس على عروسه ، ثم انطلق مسرعاً عبر الفتحات التي أُعدت مسبقاً . . حتى وصل إلى آخر القرية في خلال خمس دقائق!

عندما وصل الجيش كان كل شيء قد انتهى . . صرخ الجندي (سفيكا)

ـ هلا دخل البلد . . ما إله إلا نص ساعة . أنا متأكد .

ـ قالوا النسوان :

ـ إنت واحد مجنون ، إطلع أحسن لك .

ـ طب اسقوني قهوة من قهوة العرس ، جاي عبالي أفرح معكم!

ـ قلنا لك ما في عرس ولا بطيخ . . وقهوتنا ما بشربها واحد مثلك ولا بذوقها

ـ نادى على إم العريس وقال لها :

ـ طب تعالي يا حجة نقسم الزاوية بيني وبينك!

ـ ما فشرت يا واطي . . شبر واحد ما إلك . . إنتو لم ، كلكم بناديق ما إلكم أهل ولا أب ولا إم .

-قل لي . . فيكم جندي بيقرب للثاني؟

-بالله عليك حقق مع إمك وقل لها مين أبوك؟

لم يجب سفيكا على أسئلة أم العريس ، فيما كان جندي آخر يحضر كي يطلق النار . . لكن (سفيكا) أمره أن لا يطلق وخرجوا من البلد .

كنتُ أفكر في كلام يحيى وجرأة المرأة الفلسطينية وأتساءل :

ما هو السر وراء هذه الجرأة وهذا العنفوان؟

ألأنها تتلو سورة الأنفال . . وعشق الأرض في فمها له حلاوة الترتيل ؟!!

هيام
التحليق صنعة الشهداء

معركتي مع الكتابة لا تقل ضراوة عن معركة يحيى ورفاقه ضد الاحتلال!

أنا صاحبة الحكايا المكّدسة المتشعّبة . . وحارسة الفجر الذي تغزله أيد متوضئة . . لقد صرت ثملة بالتفاصيل كما كل فلسطينية فالمقاومة لا تترك فرصة للذاكرة أن تستريح . . إنها تغلي وتبوح بغليانها!

القلم يلتمع أمامي . . يغويني أن أقترب . . لكن الحكاية هذه المرة ساحرة النبرة ، ثرية الدم . . حكايا لا يحتملها انحناء القلم ، حكايا مزدحمة تتراكض أمامي كخيل تحلم بالارتواء ولا يرويها سوى سحر الرواية!

رغم شفافية الحكايات ودفئها وطراوتها إلا أنها تستحيل حريقاً في صدري . . القلم في بعض الأحيان يتحول إلى نصل يحز ورقة روحي . . فلا أكتب وأطير ولا ألقي القلم جانباً فأستريح .

في يوم الفتح . . ستسأل فلسطين الصادقين عن صدقهم . .!! عن مقاومتهم وعشقهم!

خيارنا مع فلسطين هو خيار الوقت! فلسطين لم يعد يعنيها الانحناء أو الانتصاب . . ماعاد يعنيها الأغلال التي قيّدت نفسك بها . . فالخيار الآن هو خيار الوقت . . إما أن تلحق بالركب أو لا تلحق!!

إما أن تتطهر بسرعة وإما أن تبقى نجساً! إما أن تبقى في العتمة وإما أن تلحق بركب النور!

رفاق يحيى الذين جاعوا وعطشوا وناموا في الكهوف أدركوا الخيار مبكراً!

شهور وأنا أراقبهم . . أراهم يكسرون القفص الذي صنعته السلطة التي تواطأت مع المحتل ، ونسقت أمنياً ضد المقاومة ، فلولاها لانسحبت «إسرائيل» من الضفة كما حصل الانسحاب من قطاع غزة .

أحياناً ينشف ريقي وأنا أسمعهم ، وأحياناً أتقافز ضحكاً من كل قلبي على جملة قالوها أو موقف فكاهي نسجوه . . وأحياناً كثيرة أبكي بصمت تتفسخ له روحي وهم يجهزون لعملية ما ، أو يتلُون وصية من وصاياهم قبل التنفيذ . . ثم يحلقون عالياً إلى السماء!

مسكين أنت يا من لم تسمع سلاح التكبير وهو يدوي عالياً قبل عملية من العمليات!

ومقيَّد أنت . . إذا لم تر الأصابع الضاغطة على الزناد وهي تودع العجز والقهر وتنشق روحاً تقرر التحليق والخلود!

وأصمُّ أنت إذا لم تسمع صاحب العملية الأولى وهو ينشد . .

عهداً يا أمي لنوخذ بالثار . . . عهداً يا أمي ما بنبيع الدار

كم عذبني سماع صهيل الخيول المقيَّدة في ساحة الدار تنتظر لحظة الانطلاق . .

وحانت اللحظة

ذلك العاشق . . دمه الجوري المضمّخ بالشّوق والولع . . هو الذي أعلنها ثأراً على مذبحة الحرم الإبراهيمي . . ذلك العاشق . . عشقه أبكم إن لم يهدِ دمه!

ما زلتُ أحمل السر الكبير . . التوقيت ، نوع السّيارة ، كمية المتفجرات ، عدد العبوات ، طريقة التّخفي وطريقة التّصنيع (السّماد الذي يستخدمه المزارعون ، الفحم العادي ، الكبريت الذي يستخدم كمبيد حشري)

أي فرح حملته لحظة احتاروا كيف يطحنون الفحم . . قفزتُ كزنبرك وناديت على يحيى وقلت له :

مكتبة الرمحي أحمد

ـ أنا أطحنه!!

ـ كيف؟

ـ بالمولينكس!!

يضحكون ويأتون لي بأربعة خلاطات مولينكس .

من سيبكيك إلاّي قبل أن يعلنوا حتى عن اسم من فجّر السيارة المفخّخة التي تحمل ١٠٠كيلو غرام من المتفجرات والعلب والمسامير وقطع الحديد داخل محطة باصات العفّولة . . من سيبتسم وهم يحصون عدد القتلى من لصوص الأرض!

تتسع حدقة عيني وأنا أسمع المعلق الصهيوني يقول إن عدد القتلى ٩ صهاينة وأكثر من خمسين جريحاً

دمعة راقصة تنساب من عيني عندما أسمع تعليق أحد الصهاينة بعد العملية (الأمر معقد . . فنحن لا نستطيع أن نمنع أي إنسان يريد الموت)!!

لكنه لا يفهم أن بعض الموت يحمل اتساع الحياة وخضرتها

صاحب الترتيل الأول هو رائد زكارنة . . في الساعة الثانية عشرة ونصف ظهر يوم الأربعاء ١٩٩٤/٤/٦

الشهداء لا يتشابهون . . كل له طقسه وذاكرته ولغته ومفتاحه

لكنني عندما أوغلت في التأمل اكتشفت أنهم يتشابهون في رفّة الروح ، وفي اتّجاه الخطوة وفي اليقين المتحرّر من الأصفاد الدُّنيويّة ، وفي شكل الارتماء على صدر الأرض بشوق!

التحليق صنعة الشهداء . . تلهمهم الأنفاس المسكونة بالعشق ويتفتت على أجنحتهم الطائرة الصمت والخذلان .

كل تحليق يُسلِّم إلى تحليق آخر . . فعندما تخفق روح أحدهم وتحلّق عالياً تصنع روحه تيار عشق ملتهب يمسك بيد من خلفه يرفعه إليه ليرتقي ويحلق تماماً كما الأوز الذي يطير على شكل الرّقم سبعة ليصنع تيّاراً هوائياً صاعداً يرفع الأوزّ الذي خلفه فيطيرون لمسافة أبعد مما لو كان كل طائر على حدة!

وهكذا كان رفاق يحيى لا يخرجون من سربهم مهما حدث ، ويوقنون بصعوبة التحليق وحدهم .

لماذا تلمع هذه الحكاية الآن في مخيلتي؟

ألأن الأوز يشبه يحيى ورفاقه . . الذين يحلمون بوطن الدوّالي والياسمين المتدلي من على أسقف بيوتهم . . الياسمين الذي يعيد الرائحة التي تبدلت وبهتت؟

تبهت صورة الأوز وتتضاءل وتضمحل ، وتشع حكاية من آلاف الحكايا في رأسي . .

ها أنا أرتبك وأتعثر من جديد ولا أعرف كيف أحول المشاعر والأحاسيس إلى كلمات . كل إحساس يحتاج إلى صفحات لترجمته كالياسمين لا يمكن أن تترجم رائحته لأنه باختصار ليس لغة!!

كل مشهد يجب أن يُنقل كما هو فهو لا يحتمل التزّويق . .

فالكحل أحياناً في عين الجميلة يضيع جمال العين ويبعثر حدودها بدلاً من أن يرسمها!

وكسنبلة مثقلة بالفرح . . أنحني وأقبّل يداً تضغط على زر التفجير الثاني في الساعة الثامنة وخمسين دقيقة من صباح يوم الأربعاء ٩٤/٤/١٣ بعد أن ثبت شحنة ناسفة على جسده ركّبها له يحيى

أما العبوة الثانية والتي كانت على شكل حقيبة سفر صغيرة تشبه ما يحملها الجنود الصهاينة في تنقلاتهم من وإلى معسكراتهم ، فقد تركها في موقف الحافلات بناء على تعليمات يحيى!

صاحب الترتيل الثاني في الخضيرة هو عمّار عمارنة الذي قتل خمسة صهاينة وجرح أكثر من ٣٢ جندياً

وكبحر متيَّم بشاطئه . . أستيقظ على صوت طرقات خفيفة على نافذة غرفتي . . فإذا به يحيى وسعد العرابيد . . فتحت لهم الباب . . دخلا بعد أن أخفيا آثار أقدامهما خارج البيت ، حيث كانت آثار أحذيتهم الثقيلة مغروسة في الأرض الموحلة . . دخل يحيى وكان يقفز فرحاً بنجاح العملية الثالثة التي مرَّغت أنف الاحتلال .

ففي صباح يوم الأربعاء ٩٤/١٠/١٩ كان الشهيد يأخذ مقعده في الصف السادس تماماً خلف السائق في باص رقم (٥) ، ويبقى في الباص إلى أن تصل الحافلة إلى ساحة (ديزنغوف) ، وعندما تقترب حافلة أخرى وتصبح محاذية تماماً للحافلة التي يركبها الشهيد تحين لحظة التّحليق ويفجّر عبوَّته الناسفة ، لتتحول الحافلة إلى كومة حطام ويتطاير سقف الحافلة في دائرة قطرها يتجاوز الخمسين متراً

صاحب التَّرتيل الثَّالث في (ديزنغوف) والذي قتل ١٢ صهيونياً وعشرات الجرحى هو صالح صوي نزّال .

صالح لم يخذل فلسطين ، ولذلك لم تخذله ، فكان له ما أراد . . أن يتفتت جسده قطعاً صغيرة تمتزج بثراها كما كان يسمعه يحيى دوماً يدعو

نخشون فاكسمان
وداد

عندما يلوح يوسفي في الأفق يتحوّل الشفق الدموي إلى حنّاء وتلتمع الدَّمعة في الأهداب فتصبح لؤلؤة لا تنكسر

حكايا يوسفي سُلَّم يفتح لي أبواب السماء ، فيرقُّ القلب ، وتشفى الروح التي تفتح شبابيكها على النور فأفيض قرباً وأُنساً

هذه المرة يحمل لي حكاية الضَّوء والشَّمعة!!

أنحاز للوطن في عيون يوسفي . . أنحاز للأسرى في ناي شفتيه ، أغلق عيني وأنا أسمعه وأنتظر رائحة الكلمات الياسمينية وهي تداعب روحي .

الحجارة كانت البداية يا وداد . .

لكننا لم نعد مجرّد حجارة . . مع أنها هي التي حفظت هيبة الوطن ، لم نعد دموعاً وأنقاضاً وأشلاء . لم نعد أسرى . . لقد عرفنا كيف نصنع الأغلال ، وكيف نحول الصَّرخة الغائرة إلى شوك نزرعه في حلق المحتل

ما لم أتقنه هو النَّوم يا وداد!!

مع أن غزَّة كلّ غزّة تذهب إليه ، فهو الذي يصنع الوسائد ويخيطها بيد احترفت التَّنجيد ، فمن أراد نوماً هانئاً يذهب إلى دكان أبي الكل يضع رأسه على وسائد أبي الناعمة إلا أنا ابنه!!

لم ننم إلا بعد أن اكتملت الخطة التي نسجنا خيوطها أنا و يحيى وسعد العرابيد .

تمَّ شراء أربع قبَّعات تعود للمتديِّنين الصَّهاينة ، واستئجار سيارة ، فهذه المرّة لم تكن السيارة مسروقة بل مستأجرة من شركة سيارات (شاكوينر) ، كانت حمراء من نوع فولكس فاجن . المنزل الذي سيعيد الهيبة للجبهة السَّمراء كان في (بير نبالا) ، وبعد أن تأكدنا من سلامة الموقع قام يحيى بتلغيم النوافذ وتلغيم البوابة الحديدية الخارجية وانطلق الجياد إلى أهدافهم .

١٩٩٤/١٠/٩ هو يوم التنفيذ . . قالها جملة وكأنه وضع خطّاً أحمر تحت السطر

وما بين الانحناء والانتصاب لحظة يقين ، وما بين الخيط الأبيض والأسود فجر آتٍ لا محالة

عندما قال هذه الجملة امتلأتُ بالدهشة ، وتيقَّنت ، وعرفت كم يحمل المقاوم من فن!! فيوسفي كان فناناً في المقاومة كما كان مقاوماً في فنه

يوسفي هو أول من أنشأ الفرق الفنية التي تقدم المسرحيات والأناشيد الهادرة في خان يونس ، مسرحياته كانت تزيل القناع عن وجه «إسرائيل» القبيح وتحوك ملامح وطن جذوره تمتد عميقاً في الأرض ، ملامح وطن يسمع صوته ، يشمُّ رائحة بحره ويحمله على عتبات الصمود إلى اليقين بالعودة .

سألته

هل ثمة علاقة بين الفنِّ والمقاومة؟ وما هي المسافة بينهما؟

ـ الفن ضمَّة ورد ، والمقاومة سيف ورمح ، وهما جناحان مهما كان

أحدهما قوياً لا يمكن أن يطير دون الآخر .

المقاومة تشبه الفن في صوتها الشجيّ ، في إنارة الروح ، في إيقاد الشّعلة

قلت :

-والفنُّ الذي يبقى حبيساً على الورق ليس فنّاً ، والمقاومة التي لا تستنشق عبير الفن لا تحمل إلى برِّ الأمان!

نظر إليَّ وكأنه يزهو بما قلت وأكمل :

ـ وقد تختلط الأدوار بين المقاومة والفنّ ، وقد يتبادلون المواقع . فالفنّان سواء كان رسّاماً أو كاتباً أو مصوّراً قد يُصفّى ويُجهز عليه تماماً كما المقاوم ، ولولا أنهم يخشون قلمه أو ريشته أو كاميرته ما فعلوها مع غسان كنفاني وناجي العلي!

أسمع كلماته تنقر على لوحي الزجاجي الشفاف فأغدو نقيّة ، فحكايات يوسف عن مقاومته قليلة جداً إن لم تكن معدومة ، كنتُ أحياناً كثيرة أُركّب الحكايات . . أللمها ، موقف من هنا وكلمة من هناك ، وفي بعض المرات من صورة قديمة وأحياناً من حكايا هيام على الورق .

لكنه في هذه المرة قال الحكاية كاملة دون أن أحتاج لأن أكمل مشهداً من خيالي . .

يقول :

ابتسامة ساخرة تطل من عيون المقاومين بعدما نجحوا في استدراج جندي صهيوني عند مفترق (راموت) القريب من المطار كانوا يسيرون في المنطقة وعيونهم تترصّد جوانب الطّريق . . هم الآن بَدَؤُوا المسير في قوافل العاشقين ؛ فلولا خطاهم لظمئت الحناجر ، تكبيرتهم

الأولى السّلاح الذي يحملونه

شاهدوا جنديّاً إسرائيلياً يترجّل من سيارة ويمشي إلى أن يصل إلى محطةٍ قريبة من الحافلات ، وما إن شاهد سيارة المقاومين الأربعة حتى أشار إليهم طالباً الوقوف لإيصاله إلى وجهته .

توقفت السيارة وتحول الصبّار الذي نخز جلودهم على مدى سنين طويلة إلى ثمر حان قطافه .

الكفُّ المرتعشة غدت صلبة تثأر لزغرودة أمّ ، وحنين طفل أنهكه الغياب لحضن والده الشهيد .

صعد الجندي إلى السيارة ، كان يحمل سلاحاً من نوع إم ١٦ ، وحقيبة زيتية اللون ، وعلى الفور سأله (جهاد يغمور) بالعبرية إلى أين؟ فأجاب إلى الرَّملة

ياعتمة الزنازين . . هاهو النهار يغفو على صدرك . . لقد حان الميعاد لنلملم الرجولة المسحوقة وراء القضبان .

خرج المقاومون من منطقة المطار ، وقبل أن يصلوا إلى مفترق طريق القدس ويافا . . أحكم المقاومون قبضتهم ولفوا خيوط الحلم حول يدي الجندي ورجليه جيداً ، قيّدوه ووضعوه أسفل السيارة .

عندها بدأ الجندي يرفس ويهدّد ويتوعَّد إلى أن قال له جهاد :

لن نمسَّك بسوء لا نريد منك شيئاً ، لقد قمنا بأسرك من أجل إبرام صفقة تبادل للأسرى مع الحكومة الإسرائيلية .

عندها فقط سكت الجندي وقَرر الاستسلام .

أدار جهاد رأسه نحو الجندي ، وحاول أن يتحدث معه حتى يشعره بالأمان والطمأنينة . . سأله عن اسمه فقال :

ـ نخشون فاكسمان .

استرسل في الحديث معه . . فعرف أنه يعيش مع والديه في منطقة راموت قرب القدس ، وأنه خدم في لواء جولاني ، وخدم أيضاً لمدة ثلاثة أشهر في جنوب لبنان .

كانوا سعداء وهم يحصلون على هذا الصيد الثمين لأنهم به سيضعون حداً للاحتلال ، فالاحتلال تمادى وتمادى والسجون امتلأت بالأسرى ، وإذ لم يجد الاحتلال رادعاً من نار يكويه فلن يوقفه شيء!

وصل المقاومون إلى بير نبالا في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً ، أدخلوه إلى البيت الذي أعدوه مسبقاً

أتأمل وجه يوسفي وقد ارتعش صوته فرحاً ، يعيش الحدث وكأنه يحدث الآن فيشرق وجهي لإشراقه

يذهب أحد المقاومين مسرعاً إلى محل تصوير ، يستأجر آلة تصوير ويطلب من الجندي أن يوجّه رسالة إلى أهله يطمئنهم فيها عن صحته ، وأنه لايزال على قيد الحياة ، وأن يخاطب رئيس وزراء حكومته (إسحق رابين) بأن يلبي طلب المقاومين .

وقف (صلاح جاد) خلف الجندي ملثماً بكوفيته وحاملاً قطعة السلاح الخاصة بالجندي وبطاقته الشخصية وأدلى بالبيان العسكري .

حينها صرخت الأرض بأحرف عربية وابتسمت ثأراً للدم والأشلاء والأسرى . . اخضرَّ القلب وأينع القلم وانتشى النبض ورسم أبطالنا الخريطة كما يريدون!

كم كان صوته قوياً وناعماً كخيوط الندى . . أغمضتُ عيني وتركت كلماته تنساب في أعماقي فتُحرك الراكد . . آه كم تربكني أيها الفنان المقاوم . .

وصلني جهاد يغمور إلى غزة حاملاً معه الشريط المصوَّر وسلاح

الجندي والبطاقة الشخصية وسلّمني إياهم بهدف تضليل العدو ونقل مسرح العملية إلى قطاع غزة وكأنّ الجندي موجود هنا!!

بدأ الاحتلال يتخبط ، لأول مرة يقعون بين فكي كماشة ، لأول مرة سنفرض شروطنا ، لأول مرة يذوقون طعم السم الذي جرّعوه لنا كثيراً

ويخرج رئيس الوزراء (رابين) ويقول :

الجندي محتجز في غزة وقد قُتل ، ولا دليل أن الجندي على قيد الحياة!

في ساعات ظهر يوم ٩٤/١٠/١٢ نشر المقاومون الشريط الذي تمّ تصويره ، فكان ظهور فاكسمان على شاشات التلفاز بمثابة بصقة في وجه الاحتلال .

وجدتني غارقة في ألوان البهجة . . ف«إسرائيل» الأكذوبة لم تستطع أن تغطّي عجزها بأكذوبة

الدمع ماعاد صمتاً وعاراً ، المقاومة ركلت (رابين) وثأرت للشهب التي التمعت في السماء طويلاً وما عبئ بها أحد!

رفض (رابين) الاستجابة لمطالب الخاطفين وتعهد بإعادته حياً أمهلت المجموعة المقاومة اليهود ٣ أيام لتنفيذ مطالب المقاومة وإلا سيُقتل الجندي وتحتفظ بجثته

الآن سيزهر الموت الجميل يا وداد . . الموت الذي لا يهادن ولا يجامل . . ويرد الصفعة صفعات . .

أمسكت «إسرائيل» بطرف الخيط عن طريق مكالمة تلفونية من (جهاد يغمور) واعتقلته ليلة خروجه من غزة بعد انتهاء المهلة بساعات . . اعتقل وعُذّب تعذيباً وحشياً فاعترف بمكان الجندي .

توضّأ المقاومون استعداداً لعملية الاقتحام التي بدأ (رابين) في تنفيذها ، راقبوا المنزل ، وعرفوا أن منافذه العشرة مغلقة جيداً ولم يظهر أحد من النوافذ والأبواب .

اشتبكت المقاومة الشرسة من الداخل مع القوة الصهيونية مما أدى إلى استشهاد كل من في المنزل ومقتل الجندي ومقتل قائد عملية الاقتحام .

في هذه اللحظة أضاء شيء في قلبي . . شيء بين الفرح والحزن . . الفرح الخجول والحزن الصامت . . لكنني شعرتُ بالنشوة لأنني كنت أخاف أن أحيا وأموت وأنا في زمن الهزائم . . أن أحيا بعقل مهزوم وروح مهزومة . . لكن هؤلاء المقاومين هم من أعطوا للنصر معنى

هيام
الأسماء

كـمـا تحـتـفـظ الـدروب بالخطا العـاشـقـة . . تحـتـفظ الأرواح بوهج الأسماء!

الأسماء تحملنا ونحملها . . تنقش فينا وننقش عليها . . تتلبسنا ونتلبسها

أردد اسم يحيى . . وأحدّق فيه وهو مسجّى . . أتنقل بين الصورة والاسم . . فـأكـتـشف وجـه الشـبـه بين الاسم والرسم . . في هذه اللحظة . . أتأمله بهدوء وسكينة ، وكأن صورته لم تزلزل كياني وتجعله ندفاً كندف الثلج . . هشّاً وبارداً لاسعاً

يحيى يحمل من اسمه النبض الذي لا يفنى

الأرواح التي تحـمـل أسـمـاءً نابضـة لا يمكن أن تفنى وتصـدأ . والأسماء التي تلبس أرواحاً مناضلة يصبح لها بريق لا يبهت!

هل كان قدراً أن يكون اسمه يحيى ليحيا ولا يموت!!

وهل هو قدري أن أحمل اسم هيام . . التي تهيم عشقاً بالوطن . . الوطن الذي يكون أحياناً على هيئة رجل!

ومع أننا لا نختار أسماءنا . . إلا أنها تختارنا وتبتكرنا كما تبتكر الحنجرة الصوت والبحّة والرنّة . . .!

رجعت من ختان عبداللطيف ودخلت منزل الشيخ نمر . . وشعرت

بحركة غريبة وهمس غير عادي . دخلت غرفتي لأجدهم قد أخذوا التلفاز وأخفوه عن عيني! شعرت بقلق شديد . . ولما سألتهم . . لم يردّوا بأي كلمة . . أعادوا التلفاز إلى مكانه . . فتحته وكانت نشرة الأخبار . . قبل أن أسمع أي خبر . . قالوا لي :

ـ لا تخافي يحيى بخير!!

لعب الفأر في عبّي . . ولم أرتح لكلماتهم . . فتحت على القناة الثانية التي تتحدث باللغة الإنجليزية ، وإذا بي أسمع اسم يحيى . . حينها أيقنت أنه حيٌّ يرزق عند رب العباد!

بعدها أتى أولاد الشيخ نمر وقالوا لي إن يحيى استشهد . . .!!

لم أبك . . لم أصرخ . . لم أحزن . .

لم أحزن لأني لم أجد في الحزن ما يشبه فجيعتي!!

لا أستطيع القول إني حزينة ؛ فهذه الكلمة التي تتكون من ثلاثة حروف صغيرة وضئيلة ولا ترى بالإحساس المجرد!!

ليس للحزن كلمة سرّ تفتحه وتعرف كنهه . .!

ما أبشع الكلمات وما أقساها وأثقلها حين تستعصي وتخون! وما أعلى صوت الفجيعة حين ترتسم على الوجه أفواهاً فاغرة بأصوات مخنوقة وعيون بلا دموع ، فقد غيَّر مجرى الدمع مساره ليصبَّ في مجرى الدم!

الحزن حالة عارضة . . لحدث عارض قابل للنسيان . . هل حقاً أن كل شيء قابل للنسيان؟

مقولة (كل شيء يكبر بالزمن إلا الحزن فإنه يصغر) تجعلني أضحك بمرارة!!

أولّي ظهري للمقولة وأقول :

إن فجيعتي في يحيى لن تمحوها الأيام القادمة ، وما لم تمحه الليلة الأولى لن تستطيع السنين أن تمحوه!

إن حياة واحدة مع من تعشق كفيلة بأن تمنحك عمراً إضافياً فوق عمرك . . تكمل بها ما تبقى من العمر . . لحظة واحدة عامرة ومليئة وحافلة بالحب كافية لكي تملأ الفراغ القادم .

نظرت في المكان البارد الموحش . . كان دافئاً قبل لحظات ، كان منيراً ويملؤه الصَّخب . . في لحظة شعرت أني أرى هذا المكان لأول مرة . . فمع يحيى لم أشعر بغربة . . في هذه اللحظة أيقنت أني غريبة وأريد أن أرحل . . أريد أهلي . . أريد كتفاً أضع عليها رأسي وكفاً تحضن يدي .

مكتبة الرمحي أحمد ٤٨

أنظر إلى طفليَّ النائمين . . كصورة معلقة على جدار بارد . . وحيدين . . ضعيفين ، أرتعش حينما أرى صورتيهما وحيدتين دون صورة والدهما

. .لا أصدق عقلي ولا قلبي . وصار الوقت متأخراً وجاء أصحاب يحيى الذين كانوا مطاردين معه ، وعندما رأيتهم صرخت بهم وقلت :

– أهان عليكم أن يموت وحده . . لماذا لم تكونوا بقربه؟ لماذا لم تعرفوا أين مكانه؟ وإلى أين ذهب؟

–ليش تركتوه لحاله؟

صاروا يبكون وقالوا :

–جئنا من أجلك وأنت على حق ، نحن ما بنستاهل إنه نكون معه

وقالوا غداً سنأتي ونأخذك لكي تري يحيى . . قلت لهم لا ، أريد أن تبقى صورته معلقة في ذهني كما هي لحظة وداعي له آخر مرة .

الليل كان ثقيلاً كانت أثقل ليلة علي مذ ولدتني أمي . الليل دكٌ صدري .

كم هو حارق أن أصف تلك الليلة حيث كان البرد قارصاً والشتاء غزيراً ، حيث كنتُ مسجونة في قفص مروّع ، مسكونة بهوْل ما سمعت ، عارية من الكلمات ، وطوفان كسول يأتي لي ببطء قاتل يغرقني ، ولا سفينة نوح تنقذني

لا أملك وصفاً لهذه الليلة لا أتخيل أن أنقلها إلى الورق الأبيض لأنه لن يحتمل!

يقولون إن الليل هو الصندوق الذي يضع فيه الموجوعون آلامهم . أما الليل عندي فيفتح الصندوق كسيل عرم وتتدفق المشاهد والحكايا . . لا أستطيع أن أرتبها ، يُفتح صندوق أسراري الذي حملته طويلاً فوق كتفي ، في هذه اللحظة لم أعد أحتمل تكدس الحكايات والصور ، أشعرها تتكدس أكواماً أكواماً فأنوء بحملها . . تلتصق بعض الصور ببعضها الآخر . . ثم تنفصل فجأة . . أحياناً تتلون . . وأحياناً تكون بالأبيض والأسود . . أصحّ . . وأشعر أن روحي تخرج من سمّ الخِياط . . أشعر بالموت ينظر إلي ويمرُّ سريعاً وينطفىء كشعلة بعثرها الريح .

بعض الصور مستقرة في زاوية بعيدة من رأسي ، وبعضها قريب جداً لا يحتاج أن أستدعيه . أتطلع إلى براء . . أراه شاباً ممشوقاً عريض المنكبين!! لماذا أراه بهذه الصورة وهو لم يتجاوز الأربع سنوات؟ أعتقد لأنه كان واعياً لحجم الخطر الذي يتهدد والديه ، فبدلاً من أضع يدي على فمه حتى لا يُصدر صوتاً يسمعه جنود الاحتلال وضع هو يده على فمي واختبأنا في الخزانة المظلمة ، دون أن ينطق ببنت شفة

عندما داهم الجنود الصهاينة بيتاً كنا نقيم فيه!

لماذا تحضرني هذه الصورة الآن بالذات بعد سماعي لاستشهاد يحيى؟ أتحضرني الصورة الثانية لأحتمل سماع الخبر الثاني!!

في هذه الليلة نامت عندي زوجة الشيخ وابنته ، وعندما رأيتهم يغطُّون في النوم صرت أبكي وأصرخ :

بتناموا في اليوم إلّي استشهد فيه يحيى . .!! اليوم إلّي استشهد فيه يحيى ما في نوم . .

كان الشتاء في الخارج غزيراً جداً ، وأحسست أن روحي سوف تخرج ، فخرجت خارج الغرفة ولحقت بي زوجة الشيخ وأدخلتني رغماً عني ، وبقيتُ على هذه الحال إلى طلوع الفجر

صباح غريب ليس فيه يحيى . . صباح لم أجرؤ أن أنظر في عينيه!

حملوني إلى غزة وأنا أنظر بعينيَّ الموجوعتين وكأنني أرى غزّة لأول مرة . . غزّة التي بحثت طويلاً عن لون النصر الذي صاغه يحيى ، غزة صاحبة الدموع الحارقة على الجسد المشتعل .

الطريق تتلوى كأفعى ، أرتعش وأنا أرى غزّة المتمردة . . المشتعلة . . ساكنة ومترقّبة . . غزّة دون يحيى مغمضة العينين . . صامتة الشفتين . كان معي في السيارة صديقة من خان يونس وحسن سلامة وسارت السيارة . . من خان يونس إلى غزة وكنت منهكة من الحزن والتعب .

وقلت لحسن :

-كيف بتتركو صاحبك يموت لحاله؟

كان يسمع كلماتي بصمت ويتألم ، قال والله إنه بستاهل الشهادة

ونحن ربنا ما أعطانا ايّاها لأنه أحسن منّا . وأخذ البراء ووضعه في حضنه ، كان اله عريس ١٥ يوماً فقط؟

ومشيت في الجنازة ساعات ، رأيت غزة طلعت كلها كالسّيل ، ورأيت دموع الرجال على وجوههم .

الكل يريد أن يسلّم علي وأن يراني ، وكلهم ينظرون إلي بحزن ، وأنا أحكي لنفسي هم يبكون وماذا أفعل أنا!!

ومشى بنا المركب كأنه مثل موج البحر لا يمشي من كثرة الناس ، ووصل والداه من الضفة ليودعاه ، وأعطوهما تصريح دخول فقط ليومين .

أنظر فيمن حولي . . أشعر برعشة شديدة تسري في أنحاء جسدي ، أشعر أنني أكاد أفقد عقلي . . في هذه اللحظة تيقنت بأن كل شيء سيتغير . . لن تعود الأمور كما كانت قبل وفاة يحيى . . في هذه الأثناء يتقدم مني رجل متوسط العمر ، بياض شعره يغطي السواد . . يحني ظهره قرب الشاحنة التي وضعوا عليها يحيى ويقول لي :

-اصعدي على ظهري!!

قلت له :

ـ لا . . جيبوا لي كرسي

قال لي :

ـ ليس هناك مكان نضع فيه كرسياً ولا أي شيء آخر . لكثرة البشر ليس هناك موطئ قدم! اصعدي على ظهري يحصل لي الشرف .

وصعدت على استحياء . . وجلستُ قرب يحيى وبدأت أحكي معه :

تلعثمت في البداية وقلتُ لنفسي :

ياريتني حضّرتْ حالي شو أحكي له :

أخاله يستمع إلي . . وينظر بعين مفتوحة صوبي . . رأيته أبيض الوجه متلألئاً . . وعرقه يتصبَّب على صدره ، وجهه مثل فلقة القمر . . الجهة اليمنى هي التي تضررت ، أما الجهة الأخرى فبقيت كما هي لم تُصب بأي أذى!

قلتُ له :

قم يا يحيى . . قم مازال لدينا وقتٌ طويل لنحيا معاً ونصبح على عكاز بجانب بعضنا البعض ، نزوج الأولاد ونرى الأحفاد ونحمل رايات النّصر والتّحرير ، قم وخذ بيدي . . قف لأسند رأسي على كتفك . . أسكن إليك وألقي بزمام أمري إليك فأستريح!

قم يا حبيبي مازال هناك الكثير من الأمنيات الطازجة تنتظرنا!! قم لنعود إلى الضفة كما كنت تشتهي وتتمنى . .

كثيراً ما فكرتُ بهذا اليوم ، تخيّلتُ الفاجعة ورسمتها بدقّة مع أنَّني كنتُ لا أطيق مجرّد مرور الفكرة التي كانت تنضج كل يوم أكثر وأكثر ، كنتُ أمسك بها أركلها بقدمي بكل ما أُوتيت من قوة ، وأركلها بعيداً بعيداً حتى لا أعود أراها أو أسمع دبيبها البطيء نحوي!

كنتُ أعيش اللحظة أختلقها قبل أن تُخلق ، ثم لا ألبث أن أدحرجها من علٍ .

كل انغلاقة باب وراء يحيى كنتُ أسأل نفسي هل سأراه ثانية أم لا؟

كل خبر عاجل على التلفاز . كنتُ أتخيل حروف اسمه!

كل كأس ماء يشربه كنتُ أتساءل هل سيكون الأخير؟

من قال إن الموت قاس؟

إنه حـانٍ ودافئ . . . ليس في ذاته . . بل فـيـمـا يفـتـحـه من أبواب . . .!!

إنه يشبه العاصفة . . على رغم قسوتها إلا أنها تلملم كل الأشياء الصغيرة والكبيرة . . كل التفاصيل والحكايا التي عشناها سوياً تلقيها أمامي . . فتصبح أشدّ وضوحاً وإيلاماً وشوقاً!

أجلس قبالتك تماماً صامتة . . وكأنّ اللغة قد تاهت وتبعثرت حروفها . . أمسح دموعي بطرف كميٍّ . . أشعر بنفسي أركض وأركض . . أركض هرباً إليك فقط! وفجأة تنفتح أبواب مغلقة منذ سنين . . تنفتح . . فيطل مشهد . . من المشاهد التي ظننت أنه غار .

مشهد ليلة السحور . .

كنتُ أعد السحور في المطبخ . . لـ٢٢ مطارداً من أصدقاء يحيى

تلفّتُّ إلى البرندة . . وكانت الدنيا . . عتمة كحل والمطر غزيراً في الخارج . . وإذ بي أسمع همهمة . . نظرت وإذا اثنان متكوِّرَان في البرندة ـ فكرتك إنت وصاحبك ـ ناديت :

ـ يحيى جيتوا؟

وجاء الرد قاسياً :

ـ أسكت جيش!

ما حكيتش . . ولا تنفست . . وبسرعة ركضت باتجاه الباب أريد أن أخرج . . فوجدت على الباب ما يزيد على ٤٠ جندياً . . محوْطين الدار من كل مكان . . إشي على السور . . وإشي تحت السور بس مبيَّن منه راس البارودة وإشي على السّطح والبوابة

قلت للجندي :

لازم أطلع . . الحج بدو يموت . . بدي أروح أجيب الدكتور .
وصَدَّقْني وطْلعتْ وماعْرفتْ كيفْ طْلعتْ!
وبسرعة فتحت باب الجامع ودخلت على الشيخ في المئذنة وقلت له :
دارنا مطوَّقة والشباب جايين يتسحروا . . دخيلك بسرعة أبعثْ لغز للشباب . . فنادى في الميكرفون مع التسَّبيح :
(حُوش يا صاحب الكَرِمْ حُوش . . .
وذِيَال البلد مَلْيانة وْحوشْ . .
لبن يا تيس
افهم يا حمار . .)
لماذا تأتي وتلتمع هذه الحكاية الآن؟
لماذا يستيقظ هذا المشهد من دون كل المشاهد؟
ألأن هذه الحكاية جعلت وجهي الصغير بين يديك العاشقتين؟
ألأنك قلت لي : أخت رجال والله يا هيام .
ألأني شعرت بأني لست مجرد زوجة بل أنا شريكتك في النضال والكفاح؟
ألأني كنت مستعدة أن أقدّم روحي في سبيل الحفاظ على روحك وروح أصدقائك المطاردين؟
لا أدري . . كل ما أعرفه أنك كنتَ مزهواً بي أمام نفسك وأمام رفاقك!
أنظر إلى جموع الناس . . الناس مثل موج البحر هادر وعنيف يرفع بعض الوجوه ويخفض الأخرى ، الناس ينظرون إليّ . . ويبتسمون وكأنهم يريدون أن يطبطبوا على ظهري ويشدوا أزري . . يريدون أن

يستخرجوا مني ابتسامة حتى ولو عنوة!

دخلنا إلى مقبرة الشهداء . .عندما دخلتها أحسستُ نفسي وكأني في جنة ، لم أشعر بالوحشة ولا بالخراب . . شعرت بالأنس . . أُنس الشهادة وعبيرها . . ودّعنا يحيى . . ودفن بغزة بجانب قبر عماد عقل!

وعدنا إلى بيت العزاء ، وهالت علينا الناس من كل حدب وصوب ، الكل يريد أن يُسلِّم علينا حتى إن يدي أوجعتني من كثرة التسلِّيم .

الناس مثل النبع لا يتركوننا ليلاً ولا نهاراً لا يتركوننا ولا ثانية . .

ما خفَّف عني أني رأيت أحبتي في جباليا والشيخ رضوان الذين كنت في ضيافتهم أول ما دخلت غزة . حتى إنهم ناموا بقربي طوال فترة العزاء . .

وآن الآوان لمغادرة غزة وقلبي يتمزَّق قهراً ، عملوا لي تنسيقاً أمنياً بين السلطة واليهود حتى أرجع إلى الضَّفة دون أن أتعرض لتهديد أو اعتقال ؛ لأن غزّة كانت منطقة حكم ذاتي وهذه عليها قضية ، وأنا في الحقيقة لم تعد تفرق معي . . سمحوا لي بالخروج أم لا!!

قبل أن أهم بالركوب . . كان يركض باتجاهي يوسف صديق يحيى يريد أن يودِّعنا . . في تلك اللحظة أمسكت دفتري . . الذي كتبت فيه كل يومياتي في غزّة . . وأعطيته ليوسف . . قلت له :

ـ الدفتر أمانة عندك . . بخاف لو أخذته معي أتعرّض لمشاكل ومساءلة بسببه . .!!

وعدتُ للوراء لأول مرة رأيت فيها يوسف في غزة . . بقيت أنظر إليه ولا أزيح نظري وقلت ليحيى . . إنني بقيت أنظر ليوسف .

فاستغرب مني وسألني لماذا؟

قلت له :

- سأملأ عينيَّ برؤيته . . حتى لو استشهد سأفتخر بأنني قد رأيته وعرفته

لقد كان ملازماً ليحيى . . لن أنسى ضحكاتهم . . وحديثهم ونشيدهم . .

مازال رنين صوتهم وهم ينشدون عالقاً في رأسي أدندن به معهم . .

ثوّار . . ثوّار .

بدروب الأقصى بتلاقينا . خيول العزّ بتسرح فينا

ودم الشهداء بيحيّنا . . الجنَّة بدها رجال

مسرى الهادي نادى فينا . . لازم ترجع فلسطينا

صلاح الدين رجالك فينا . . رح تمسح العار

ثوار . . ثوار

سيف ومصحف يا أحرار . . لازم نصبر مهما صار

وبعون الرب الجبّار . . بعد الليل نهار

ثوار . . ثوار

سيري . . يا مراكب فينا . . حتى نحرر أراضينا

حتى نوصل مراسينا . . ونسحق الغدار

ثوار . . ثوار

يا رياح الجنة هبّي

يا أنهار الشهداء صُبّي

قوموا يا أبرار

دروب الأقصى بتنادينا
خيول العزّ بتسرح فينا
ودم الشُّهداء بيحيينا
الجنَّة بدها رجال

أركب السيارة وعيناي إلى الوراء . . إلى غزَّة . . إلى يحيى . . إلى هيام الصغيرة التي دخلت غزة وهي هشة . . ومشت بجوار يحيى . . رافقته وساندته ودوَّنت سيرته هناك . . أرى نفسي أمشي بجواره لأصبح قوية وذات مخالب تدافع عمن تحب وتخرمش عند اللزوم ، وأحياناً تصبح كصقر لا يهمه أين يموت ومتى يموت . . المهم أن يبقى محلِّقاً لآخر لحظة!

تسحبني يد يحيى . . إلى حيّ الشيخ رضوان . . إلى المغراقة وحي التّفاح . . إلى خان يونس . . وحيّ الرِّمال . . إلى بيت لاهيا . . أتطلع هنا وهناك . . أقبل كل ذرة تراب مشى عليها يحيى السيارة تسير وغزة تضيق . . وتبتعد وتصغر في عينيّ . لتكبر وتكبر في قلبي تغيب عن نظري في هذه اللحظة تماماً . . في هذه اللحظة أتفاجأ بيحيى يجلس جانبي . . ويعود معي إلى الضفة

هل كنتُ أتخيل؟

نعم أتخيل . . لأحتمل

وداد
الوداع
٢٠١٤

الفراق لا يؤلم إلا من عشق بجسده . . أما من عشق بروحه فلن يؤذيه الفراق .

لذلك لم أكن أرتعب من فكرة الموت . . بقدر ما يرعبني أن لا أتذوّق طعم الحياة . . لكن وبعد سنواتي السبع في صحبة يوسف كانت حصيلة حياتي أربعة أطفال وحياة كما أشتهي وأتمنى وموتاً يليق بي!

أنظر الآن من أعلى . . إلى تلك الفتاة التي لم تتجاوز الـ٢٧ عاما ، والتي كانت تحلم بأن تحزم حقائبها في يوم ما وتسافر وترى الدنيا تقتني سيارة حمراء اللون تتجوّل بها في شوارع غزّة . . ترفه عن نفسها وأطفالها . . تأخذهم وتلف بهم لفّة على شاطئ بحر غزة .

أحدّق ملياً في ذلك الجسد الذي لم يُعرف له عنوان!! فالعناوين في غزة تتغير بين ليلة وضحاها كما كلّ شيء!

كنتُ كتاباً مغلقاً لم يستطع أحد فكّ رموزه حتى أقرب المقربين إلي! وفي اللحظة التي أعلنوا فيها خبر استشهادي . . أعلنوا فيها خبر زواجي من القائد الذي دوّخ «إسرائيل» وسقاها السم مراراً!

لكن ما هدّأ روعي . . في هذه اللحظة أنني تركت حكايتي مكتوبة . . حكايتي مع غزة ومع يوسف .

الآن يستطيع الكل أن يقرأني . . تستطيع أمي أن تعرف تحركاتي وأماكن تواجدي . . الآن ستكتشف أخواتي لماذا كنتُ أغضب عندما يسألونني أين أنا ومتى سأزور بيت أهلي

مازلت أحلق عالياً عالياً . . تاركة خلفي جسداً بارداً . . ووجهاً لم يصبْ بأذى سوى بضع شظايا استقرَّتْ خلف الرأس مباشرة . . بينما كنتُ أغنِّي لصغيري (علي) الذي يركب الدرَّاجة ويقف قبالتي تماماً .

كنتُ قد حمَّمتُ طفلتيَّ حليمة وسارة . . حليمة نامت على فرشة قبالتي تماماً ، أما سارة فقد نامت في الغرفة المجاورة .

أسمع صوت أولادي من زوجي الأول . أرى نفسي أركض إليهم في آخر تهدئة أعطاها اليهود لأهل غزة . . فقد اتصلت جدة أولادي بأمي تخبرها بأن بيان الصغيرة ذات السبع سنوات تبكي كلما سمعت صوت الزَّنانات تخاف أن تقصف أمها فتصبح يتيمة الأب والأم .

أركض إليهم . . أشتري لهم ما يُحبّون من حلوى وألعاب كما أوصاني يوسف . . أزورهم في بيت جدهم . . أخرج من عندهم وقد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ، وتحت جلدي تشتعل النار . . أخرج وأشعر أن لا امرأة في الكون تقاسمني عذابي . . أتّكئ على جرحي وأمشي على أمومتي المسكوبة لوعة

كم تمنيتُ لحظتها أن أحملَهم على ظهري وأركضُ بهم . . بعيداً . . بعيداً . . أخبئهم في محجر عيوني .

يمشون بجسدي إلى المقبرة . . ألمح وجه يوسف من بين كل الوجوه . . ولا يعرفه أحد! فأنا وحدي من أميِّز بريق عينيه ووهج أصابعه وصوت أنفاسه العاشقة . . أمشي مرفوعة على الأكتاف وبصحبتي (سارة وعلي) فقد اختارا أن يكونا معي . . مع أن سارة لم

تكن بجانبي لحظة القصف . كانت نائمة في الغرفة المجاورة!

يغرق صوت (يوسف) مع آلاف الأصوات التي خرجت لتشييع جثماني . . أسمعه يناديني (أم بكر) إكراماً لتلك المرحلة من حياتي والتي كنتُ فيها زوجة لمقاوم آخر

ها أنا أتخيّل الساعة واليوم الذي كنت تحدِّده لي كي نلتقي أركض مسرعة إليك . . عندما أجدك . . لا تتكلم . . فقط تفتح ذراعيك واسعاً لتحضنني وتعوضني عن أيام الغياب .

تنهمك في اللعب مع أطفالك السبعة . . تدغدغ أقدامهم . . وتتشابك معهم بالأيدي . . تطاردهم ويطاردونك . . تتشقلب . . تلعب معهم لعبة المقاوم والأسير . تقع أسيراً في قبضتهم . . فيضحكون ملء قلوبهم .

تغلق النوافذ خوفاً عليهم من نسمة هواء باردة . . وتطالبني عندما أضجر وأتعب بأن أطوّل بالي عليهم ، ولا أتذمّر من تعبهم وغلبتهم وتقول لي :

- يكفيهم ماهم فيه . . تنقُّل وعدم استقرار . . وأب يأتي في المناسبات .

تمسك الدنيا من أطرافها . . تلقيها تحت أقدامهم . . لتنسيهم كل لحظة فراق . .

أحياناً تقرأ لهم . . فينصتون وتتعلّق أعينهم بك ، وأحياناً ترسم وإياهم . . ويعلّقون الرسومات على حائط غرفتهم .

أتأمّلك وأتساءل :

هل هذا هو (رجل الظل) الذي دوَّخ «إسرائيل» وزلزل كيانها وجعلها تجافي النوم؟

هل هو من يقود جيشاً من المقاتلين الأكفاء؟

كيف استطاع أن يفصل بين رقته المتناهية وعشقه الشفاف وبين حمله للسلاح؟

مكتبة الرمحي أحمد ٤٨

أتأمّلك وأقول :

كيف لرجل مثل يوسف بنى عشرات الأنفاق الهجومية المفخخة ، والتي تتجاوز السياج إلى داخل «إسرائيل» ، أن يكون ورداً وناراً في الوقت نفسه؟

ها أنا أرى جموعاً لا تُعدُّ ولا تُحصى . . أرى غزّة كلها خرجت لترفع على الأكتاف زوجة القائد وولديه . . ولتسمع غزة كلها اسم الزوجة لأول مرة . . وليكون يوم استشهادها هو يوم عرسها!!

أبتسم وأرمق الناس وهم ينظرون لبعضهم بدهشة واستغراب ويتهامسون فيما بينهم :

ـ لقد كنّا نسألها عن أسماء أبنائها عند تسجيلهم في المدارس فتقول :

ـ تشابه أسماء!

أختطف نظرة إلى أبي . . الذي كان ينظر ليوسف . . فهذه هي المرة الثانية التي يراه فيها خلال سنوات زواجي السبع!

لقد صار وجه أبي أحمرَ كأنّه بركان يغلي كنت أرى شفاهه بيضاء ومشققة وقد نشف ريقه فلم يهتف مع من هتفوا :

الانتقام . . الانتقام

أشفق على أبوّته الكسيرة . . أخاف عليه وأنا أرى عروقه النّافرة كانفجار بلا صوت!

تراه هل ندم على تزويجي من يوسف؟

أراه يمسك بيد أمي . . تتكئ عليه وتقول وهو ينظر إليها بفخر :

– كلّنا فدا المقاومة كلّنا فدا فلسطين . . إذا أنا ما بدّي أضحي ، وغيري ما بدها تضحي . . ما رح تتحرر فلسطين . . أنا وولادي وبناتي وكل الشعب فدى ذرة تراب وحدة . . وفدى شعرة من شعر راسه!

جموع كالموج الهادر . . تعلو ولا تهدأ . . أنظر للأسفل . . أرى الأرض محروقة . . مليئة بالركام والأشلاء . . منزل عائلة الدّلو الذي كنتُ فيه والذي يتكون من ثلاثة طوابق سُوِّي بالأرض بعد أن أُطلق عليه ستة صواريخ (إف ١٦)

أرى أكواماً من الحجارة والإسمنت . . مختلطة بالأشلاء والدماء ، ألعاب مبتورة الرأس والأطراف بجانب أصحابها الأطفال الذين لم أتبيّن ملامحهم . . دراجات هوائية يظهر نصفها والنصف الآخر تحت الرُّكام!

مكتبة الرمحي أحمد

كم أخشى على أختي إيمان . . أعرف أن تلك اللحظة ستكون قاسية عليها وهي رفيقة الدرب . . سترين صورة عمر على شاشات التلفاز . . ينظر حوله ولا يجد من يعرفه . . أسمعك وقد انْبحَّ صوتك وتآكلت كلماتك . . وأنتِ تنتظرين الخبر اليقين لأنني قد قلت لك ولأمي :

ـ لا تتصلوا بي ولا تسألوني عن مكان إقامتي ، ولا تقولوا لي متى ستأتين لزيارتنا ، وإذا صار لي إشي رح تسمعوا من الأخبار .

أراك صامتة وتائهة في الجنازة . . تمسكين بأطفالي . . عمر وحليمة وبيان وبنان وبكر . . غَدَوْتِ أمّاً ثانية بين يوم وليلة . . وكغزالة تعضين على جرحك . . فيسيل مسكاً يفوح في الأجواء .

تضيق عيناك بالدموع يا إيمان . . ويشرق فمك بابتسامة رضا

خلّابة . . أراك تقـفين خلفي في المطبخ   تراقـبين طريقـة إعـدادي للقهوة . . حتى تقلّديني

ثم تصرخين فجأة :

ـ والله ماعملتِ إشي زيادة!! طب ليش قهوتك بتطلع زاكية؟

فـأضحك من كل قلبي . . وأنتِ تنادين الجـارات لشـرب فنجـان قهوة يعدّل المزاج وينعش الروح لأنه من يدي بالذات!

ألمح هيـام تتـابع الأخبـار . . تقف قبـالتي تماماً   ترفع الكفن عن وجهي . . تتأملني . . تتزاحم الأسئلة على طرف شـفتيهـا . . أهمس لها :

خذي دفتري لتجدي الإجابات .

هل أتنبأ بما سيحدث؟

هل أحلم أم أن الأمر حقيقة؟

هل حدث الأمر كما تنبأت؟

لا أدري!!

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf .. *قناتنا على تيليجرام*

SHE LOVED HIM PASSIONATELY

رواية
NOVEL

قد شغفها حبّا

كانت تعنيني مقاومته ورجولته .. وما بين الرجولة والذكورة رائحة تعرفها امرأة طاعنة في حبّ الوطن! وما بين السبع والنذل خطوة بلا أقدام كما يوسف الّذي فقد ساقيه في إحدى غارات الاحتلال!

لم أكن أتصوّر، مهما شطح بي الخيال ووصل، أن أكون ملكةً متوّجة على عرش الرجل الأوّل في غزّة .. الرجل الّذي يدير عمليّات القتال وهو جالس في حفرته .. الشبح الأكثر مراوغة وحيطةً وحذرًا ومهارةً وخطرًا!!

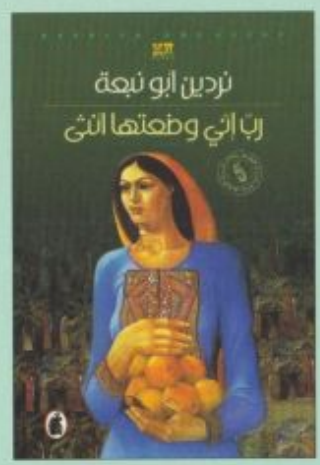

مكتبة الرمحي أحمد
قناتنا على تيليجرام
@ktabpdf

9 786144 196168